الباب الثالث

إمام المسلمين

أنــت يــا جعفــر فــوق الــ مـــــدح والمـــــدح عنـــــاء

جـــاز حـــد المـــدح مـــن قـــــد ولدتـــــه الأنبيـــــاء

"**عبد الله بن المبارك**"

obeikandl.com

إمام المسلمين

قامت الدولة الإسلامية بالمدينة المنورة حيث طبق الدين أكمل تطبيق. فلم تكن العاصمة المناسبة لدول ثلاثة أقامها أصحابها من أجل خلافة الدنيا لا خلافة الدين.

والمدينة هي المقر الأمثل لأهل بيت الرسول حيث يرتبطون بكل أثر فيها وترتبط بهم المعاني التي خلد بها الإسلام، وانتصر المسلمون.

والسنة هي الشجرة المباركة وفروعها في ثمرها اليانع رحمة ويسري ومعرفة. وفي ظلالها الوارفة مودة وإيلاف وتواصل. ومن هذه العناصر نتج الفكر الرفيع للمجتمع العظيم، يسقى من القرآن ويحيا به.

وبالقرآن والسنة، والفكر الرفيع والفقه المحيط، اعتصم أهل البيت في المدينة. فاختصم وإياهم خلفاء الدول الثلاثة الأموية والمروانية والعباسية، وولاتهم على المدينة. لكنها ظلت مدرسة السنة والفقه. وتتابع فيها أئمة أهل البيت: زين العابدين، والباقر، والصادق.

والفصل الثاني من الباب الحالي مداره مجلس إمام المسلمين جعفر الصادق، وأمثال لما يجري فيه من أقوال، ومن يشرف بالانتهاء إليه من رجال، لسوا كسائر الرجال. فهم أئمة الفكر الإسلامي جميعه. من سنن وفقه، وزهد وكلام، وعلوم تطبيقية. منذ القرن الثاني للهجرة حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

obeikandl.com

الفصل الأول

في المدينة المنورة

"اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك. وإنه دعاك لمكة. وإني أدعوك "للمدينة" بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه".

"حديث شريف"

ولي مروان بن الحكم إمرة المدينة لمعاوية سنة ٤٢. وكان مروان طلبة الثوار على عثمان، لو تسلموه لما قتلوا الخليفة – كما قيل – وكان مروان يبحث لنفسه في الفتنة عن مكان. ومن أجل ذلك رمى معاوية المدينة به، أو رماه بها، من فور ولايته للسلطة. وهو ابن عمه وابن عم عثمان.

ثم أجاءته الرياح إلى حيث نصبه أهله خليفة سنة ٦٤ بعد اعتزال معاوية بن يزيد. ثم خلف مروان ابنه عبد الملك لتبقى خلافته عشرين عاما من سنة ٦٦ إلى سنة ٨٦. وفي عبد الملك يقول عبد الله بن عمر: إن لمروان ابنا فقيها فاسألوه. لكنه بعد الخلافة صار ظلوما عشوما.

أدخل عليه الأسرى ذات يوم فأمر بضرب أعناقهم – دون استجواب! فقال له رجل من أهل الشام كان يعرفه أيام تنسكه: لقد أقست الخلافة قلبك. وكنت رءوفا! فأجاب كلا. ولكن أقاسه الضغن بعد الضغن.

كان يستنكر ضرب جيوش يزيد بن معاوية للكعبة سنة ٦٣ في حصار مكة، حتى إذا ولي الخلافة ضربها الحجاج له في سنة ٧٣! ولما سئل الحسن البصري أن يقول قوله في عبد الملك بن مروان أجاب: ماذا أقول في رجل، الحجاج إحدى سيئاته.

ولم يتمهد الملك لابنه الوليد إلا بعد عشرين عاما من حكم عبد الملك. فلقد بويع لابن الزبير بمكة سنة ٦٤ من أهل الحجاز والعراق ومصر، فدارت رحى الحرب، واستمرت بيعة العراق لابن الزبير حتى سنة ٧١ عندما قتل جند عبد الملك مصعب بن الزبير، وهدموا قصر الخلافة الزبيرية بالكوفة. وفي العام التالي استرجع "المدينة" لعبد الملك طارق بن عمر، وفي سنة ٧٣ قتل عبد الله بن الزبير، واستسلم للحجاج أهل "مكة".

وفي حياة الإمام جعفر كان على إمرة المدينة أبان بن عثمان حتى سنة ٨٢ حين عزله عبد الملك بهشام بن إسماعيل، الذي ضرب سعيد بن المسيب سنة ٨٥ من جراء رفضه بيعة الوليد وسليمان ابني عبد الملك، وطاف به في المدينة.

ثم عزل الوليد هشاما بعمر بن عبد العزيز سنة ٨٧. وعمر زوج أخته وهو زوج أخت عمر. والأربعة حفدة مروان.

وأمر الوليد عمر أن يوقف هشاما للناس أمام دار مروان، ولكل عنده مظلمة. فمر الناس به يلمزونه ويغمزونه. فصاحب المعروف لا يقع وإن وقع وجد متكأ. وكان هشام من كثرة ما أساء إلى علي بن الحسين "زين العابدين" يقول: ما أخاف إلا من علي زين العابدين – فلو أزرى به زين العابدين لحق عليه الدمار من العابدين ومن العامة – لكن زين العابدين ومواليه وخاصته مروا به لا يتعرضون له بكلمة. فلما مروا وسلم هشام، صاح: الله أعلم حيث يجعل رسالته.

ورد عمر بن عبد العزيز لأهل البيت فدكا. وكان النبي قد أعطاها لفاطمة الزهراء ولم يورثها أبو بكر وعمر لها. فكان اجتهاد عمر بن عبد العزيز خلافا في الفقه مع أبي بكر ومع جده عمر بن الخطاب.

obeikandl.com

ومنع عمر الشعار الأموي الآثم. وهو سب علي. وزاد إنصافا فاستعاض عنه شعارا تبدو فيه معاني التوبة النصوح والاستغفار من الذنوب، وهو الآية الكريمة (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان). وكان معاوية قد استحدث نظام القصص ليثني القصاص على الخلفاء من بني أمية ويزينوا للناس حالهم. فأمرهم عمر أن يقصروا الثناء "على المؤمنين".

وفي عمر يقول أحمد بن حنبل "ليس أحد من التابعين قوله حجة إلا عمر بن عبد العزيز" ويخاطبه كثير، وهو من شعراء الشيعة، بقوله:

وليت ولم تسبب عليا ولم تخف مريبا ولم تقبل مقالة مجرم

وصدقت بالقول الفعال مع الذي أتيت فأمسى راضيا كل مسلم

وفي العام التالي لولاية عمر على المدينة حج الوليد، وبدا له أن يأمر بتوسعة المسجد، لتدخل فيه حجرات أمهات المؤمنين وبيت علي، الذي أذن له النبي، في حين ردم أبواب سائر الصحابة. فنصح الناس الخليفة أن يعود إلى مقر الملك في دمشق ويصدر أوامره منها بتوسيع المساجد عامة في مكة والمدينة وبيت المقدس، وأن يبني مسجدا بدمشق، وبهذا يتحقق غرضه دون أن يلومه الناس. فجرع إلى دمشق وأصدر منها أوامره.

وشق الأمر على أهل المدينة وتظاهروا عليه طالبين ترك "الحجرات" كما تركها صاحب الشريعة. فأصر الوليد وأنفذ، لتنفيذ أمره، بعثة من العمال من بلاد الروم.

قال خبيب بن عبد الله بن الزبير لعمر: "نشدتك الله يا عمر أن تذهب بآية من آيات الله تقول: (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون). وطعن في بني أمية، وبلغ خبره الوليد بدمشق فأمر بجلده. فجلد. ومضى زمن ومات خبيب. فكان عمر يقول كلما بشره بالجنة أحد: كيف. وخبيب على الطريق!".

وفي سنة ٩١ حج الوليد، وخطب على منبر الرسول قاعدا في كبرياء. فنفر الفقهاء. وترضى السادات. فاستفز الفقراء.

وكان عمر يؤوي بالمدينة، من يتهددهم بطش الحجاج في العراق. لكن الوليد ولى الحجاج على الحج سنة ٩٢، فاستعفاه عمر من مرور الطاغية بمدينة الرسول، فقبل.

* * *

ولم يكن عدل عمر مانعا، بل ربما صار مقتضيا، أن يعزله الوليد بعثمان بن حيان المري سنة ٩٣، فأنزل الوالي الجديد النكال بالعلماء، ومنهم ناسك المدينة محمد بن المنكدر فقيه بني تيم قبيلة أبي بكر وأخوال جعفر الصادق، وقذف أهل المدينة من فوق المنبر بقوله: "أيها الناس إنا وجدناكم أهل غش لأمير المؤمنين في قديم الدهر وحديثه".

وامتدت يد البطش إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري "وجده عمرو عامل الرسول"، فأمر بحلق لحيته لولا أن عزل الخليفة الجديد "سليمان بن عبد الملك" عثمان بأبي بكر ذاته سنة ٩٦. وبقى أبو بكر أميرا على المدينة حتى سنة ١٠١. واجتمع له القضاء والإمرة عليها في خلافة عمر بن عبد العزيز.

ولما عزله يزيد بن عبد الملك بعد وفاة عمر، بعبد الرحمن بن الضحاك بن قيس عذب الوالي الجديد أبا بكر. فلما عزل عبد الرحمن سنة ١٠٤، حاقت البأساء والضراء بعبد الرحمن، حتى صار يلتمس الصدقة من سوء حاله.

وفي سنة ١٠٦ تولى إبراهيم بن هشام بن إسماعيل – وهو خال الخليفة هشام بن عبد الملك – فبقى إبراهيم واليا إلى سنة ١١٤. ثم عزل بخالد بن عبد الملك بن الحارث بن أبي العاص، فبقيت له الإمرة حتى سنة ١١٨.

وخطب خالد على منبر الرسول، فانتقص أولاد الرسول وأباهم عليا. فقام إليه داود بن قيس فبرك على ركبتيه وقال: كذبت كذبت. حتى حيل بينهما. ثم عزل بمحمد بن هشام بن إسماعيل أخي إبراهيم وبقى حتى سنة ١٢٥.

وكما ولى محمد وإبراهيم ابنا هشام، لخئولتهما لهشام بن عبد الملك، ولى الوليد بن يزيد إمرة المدينة "خاله" محمد بن يوسف الثقفي. وأمره أن يعذبهما، وأن يقيمهما للناس، وأن يبعث بهما إلى والي العراق ليذيقهما الهوان حتى يموتا من العذاب. ففعل. وبقى حتى سنة ١٢٦ فعزل بعبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ليبقى ثلاث سنوات حتى سنة ١٢٩، فيحل محله عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك.

وفي ولاية عبد الواحد كانت شمس بني أمية في الغروب: لقد طرد الحارث ابن سريج عاملهم نصر بن سيار من أقصى الشرق في مرو – وأقبل أبو حمزة "الخارجي" يخرجهم من قلب الإسلام في المدينة سنة ١٣٠ بعد وقعة قدد، وفيها قتل من أهل المدينة خلق كثير. وهرب عبد الواحد.

وسفر إلى أبي حمزة، وهو على أبواب المدينة، السفراء: شيخ بني هاشم عبد الله بن الحسن، ومحمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، وكان محسوبا مع بني هاشم لما يجمعه بهم من رحم، وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر خال الإمام جعفر، وعبد الله بن عمر بن.. عمر، ومعهم ربيعة الرأي شيخ مالك بن أنس، في رجال آخرين. فعامل أبو حمزة الوفد معاملة الخوارج للصحابة: عبس وبسر في وجه الأولين حفيدي علي وعثمان. وبشر في وجه الثالث والرابع – حفيدي الشيخين: أبي بكر وعمر. وقال لهما: والله ما جئنا إلا لنسير بسيرة أبويكما.

قال شيخ بني هاشم والله ما جئناك لتفضل بين آبائنا. ولكن بعثنا إليك الأمير برسالة. وهذا ربيعة يخبرك بها..

أقام أبو حمزة بالمدينة ثلاثة أشهر ثم خرج لقتال جند الشام فانهزم..

* * *

ثم جاءت دولة بني العباس. وتولى إمرة المدينة للسفاح عمه داود بن علي فقام فخطب فقال: أيها الناس أغركم الإمهال حتى حسبتموه الإهمال؟.. والسيف مشهر:

حتـــى يبيـــد قبيلـــة فقبيلـــة وبعـــض كـــل مثقـــف بالهـــام

ويقمـــن ربـــات الخـــدور حواســـر يمســـحن عـــرض ذوائـــب الأيتـــام

لكن الله عاجله بعد ثلاثة أشهر فلقى حتفه – وولى بعده زياد بن عبد الله بن المدان خال السفاح.

وأحاط السفاح ببني أمية: دعاهم، ومنحهم الأمان، حتى إذا اجتمعوا به أعمل رجاله السيوف فيهم. وكانوا ثمانين رجلا ونيفا. وفي سنة ١٣٣ قتل عماله من أشياعهم ثلاثين ألفا بالشام.

واستدعى عبد الله بن علي، أخو داود، وقائد جيش الشام، الإمام الأوزاعي إمام الشام إلى عسكره فسأله: ما تقول في بني أمية؟

قال: لقد كانت بينك وبينهم عهود. وكان ينبغي أن تفوا بها.

قال: ويحك. اجعلني وإياهم لا عهد بيننا.

يقول الأوزاعي: فأجهشت نفسي وكرهت القتل. فذكرت مقامي بين يدي الله فقلت: "دماؤهم عليك حرام: فانتفخت عيناه وأوداجه وقال: ويحك لم؟ قلت: قال رسول الله: لا يحل دم امرئ مسلم إلا بثلاث: ثيب زان، ونفس بنفس، وتارك دينه. قال: ويحك أو ليس الأمر لنا ديانة؟ أليس رسول الله ﷺ قد أوصى لعلي؟ فسكت.. وجعلت أتوقع رأسي يسقط.. وقال: أخرجوه فخرجت".

وروى عبد الله بن علي رماحه من الدم بما لم يسمع التاريخ بمثله. حتى إذا ولي أبو جعفر المنصور (١٣٦- ١٥٨) عزل زياد بن عبد الله بن المدان عن المدينة بمحمد بن خالد القسري. وأمر بحمل زياد بن عبد الله إلى العراق مكبلا بالحديد.

ثم عزل محمد بن خالد وولى مكانه رباح بن عثمان بن حيان سنة ١٤١. وهو ابن عم مسلم بن عقبة "الذي يسميه البعض مجرم بن عقبة – فهو قائد الجيش الذي دمر المدينة وارتكب الفظائع في معركة الحرة سنة ٦٣" ففاخر الناس بنقائصه قال: أنا الأفعى بن الأفعى أنا ابن عثمان بن حيان وابن عم مسلم بن عقبة المبيد خضراءكم المفتي رجالكم. فوثب عليه الناس فحصبوه بالحصى ورموه بالحجارة.

وفي إمرته اقتحم الجند منازل أهل البيت فأخرجوا منها رجالهم إلى السجون. ومرت مواكب أهل البيت في شوارع المدينة وهم في الأصفاد، هزلهم العذاب والأيام الشداد، ثم سيقوا إلى الكوفة، ليودعوا السجن حيث حبسوا – كما يقول المسعودي في مروج الذهب – في سرداب تحت الأرض لا يعرفون الليل من النهار حتى مات أكثرهم، ثم خر عليهم، ليموت تحت أنقاضه الأحياء منهم، ويدفن الذين سبقوهم إلى الموت دون أن يعنى بهم أحد.

وبقى رباح حتى خرج محمد بن عبد الله "النفس الزكية" على المنصور وقبض الخارجون على رباح وأدخلوه سجن المدينة هو وأخاه.

ولما انتهت الحرب عين المنصور على المدينة عبد الله بن الربيع الحارثي فبقى حتى سنة ١٤٧ ثم عزل. فولى مكانه جعفر بن سليمان بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس، فبقى واليا حتى سنة ١٤٩. وهو الذي أمر بضرب مالك بن أنس حتى انخلعت كتفه وطافوا به في المدينة.

وفي ولاية جعفر بن سليمان مات الإمام الصادق.

* * *

بهذه الوجازة العجلى لأمر الولاة في نحو قرن من الحكم الأموي والمرواني والعباسي للمدينة، عاش فيه الإمام الصادق، تتكشف أمور حسبنا أن ننبه على بعضها الآن:

١- ففي حكم بني مروان، لم يكن لأهل البيت، بخاصة، مشكلة مع الدولة، وإنما كانت المشكلة لأهل المدينة عامة مع العاصمة. أما خروج زيد بن علي زين العابدين سنة ١٢١ وابنه يحيى سنة ١٢٥[٣٧] فكان في أواخر أيام بني مروان. وكذلك كان خروج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر سنة ١٢٧، بعد عامين من استشهاد يحيى بن زيد. ولقد سلم عبد الله نفسه

---

(٣٧) ادعى خالد بن عبد الله القسري مالا قبل زيد وأبناء الصحابة. فدعاهم الخليفة هشام بن عبد الملك إلى العاصمة وسألهم فأنكروا مزاعمه. فأعادهم إلى واليه على العراق يوسف بن عمر ليستحلفهم. وقيل إن هشاما لم يرد السلام على زيد فأغلظ له زيد في الكلام. وكان زيد في الذروة من فقهاء العصر – ولما رجعوا إلى الكوفة استحلفهم يوسف فحلفوا. لكنه أبقاهم محبوسين في انتظار رأي هشام. فأمره بإخلاء سبيلهم فخرج زيد من الحبس قاصدا القادسية. واجتمع إليه شيعة الكوفة وطلبوا إليه الخروج على الخليفة وتعهدوا بنصره. فخرج إليهم، فجمعوا له أربعة آلاف رجل ثم انفضوا من حوله فحارب حرب الأبطال حتى استشهد سنة ١٢١. فكان منهم معه ماكان من آبائهم مع جده أي "فعلوها حسينية" كما قال.

ثم خرج ابنه يحيى فقتل سنة ١٢٥.

opeikandi.com

لأبي مسلم الخراساني بعد أن انهزم نصر بن سيار والي خراسان لبني مروان فقضى أبو مسلم عليه بعد أن استسلم.

بهذا يمكن القول إن زين العابدين وابنه محمدا عاشا أكثر من نصف قرن في سلام مع السلطة. وبهذا السلام تبوآ الذروة من الاحترام والطمأنينة اللذين يمهدان للعلم أن ينتشر، وللقدوة الصالحة أن يشيع هداها، كالشعاع ينشر النور في المدينة ويحمل الدفء إلى الأفئدة الوافدة من شتى الأقطار.

٢- كان الأمراء على المدينة إما أقرباء للخلفاء في دمشق والأنبار والكوفة، وإما صنائع لهم. لكنهم كانوا – عدا عمر بن عبد العزيز – مستضعفين من الجميع، يعزلون، ويقامون للناس، ليتخذوهم سخريا أو ينكلوا بهم.

وفي أواخر أيام بني مروان سخر الناس منهم علانية، واشتجروا معهم، إذا مسوا أمير المؤمنين عليا بسوء.

وكان عبد الملك قد أوصى عامله على المدينة بقوله: "جنبني دماء بني هاشم فإني رأيت آل حرب لما تهجموا عليهم لم ينصروا" – وهو الباطش، الذي تولى له بالعراق الحجاج، وبخراسان المهلب بن أبي صفرة، وبمصر هشام بن إسماعيل وابنه عبد الله، وباليمن محمد أخو الحجاج، وبالجزيرة محمد بن مروان "أخو عبد الملك" وكل من هؤلاء ظالم فاتك.

ولما سئل عبد الله بن المبارك: أبو مسلم خير أم الحجاج؟ أجاب "لا أقول أبو مسلم خير من أحد، لكن الحجاج شر منه".

٣- أما في عهد العباسيين – أبناء العمومة – فقد هبت على بني علي ريح صرصر، من الطغيان المدمر، لتنزل بهم وبأحفاد الصحابة والتابعين الفزع الأكبر، كهيئة ما صنع بنو أمية في كربلاء والحرة. وطبائع الطغيان واحدة.

أهل المدينة:

غاضبت دمشق العراق والحجاز أيام صبرها معاوية حاضرة بني أمية. وتابعته على ذلك دولة بني مروان لكن المدينة بلدة طيبة وشعب كريم. وثب أهلها بالأمويين بعد كربلاء ثم تركوهم يجلون عنها، على موثق من أهلها، ألا يدلوا جند يزيد على عوراتها. وجلا الأمويون إلى الشام إلا زوج مروان بن الحكم، عائشة بنت عثمان بن عفان، توجهت إلى الطائف في حماية "علي زين العابدين".

والمدينة واحة في قفر،والرزق نزر في الصحارى الساخنة، إلا ما يرد إلى الناس من تجارة أو عطاء، متقطع كسحائب الصحراء،يجري، ويجف، حسب الشهوات، في دمشق. وأهل البيت تجيئهم حقوقهم في بيت المال أولا تجئ، لكنهم ينفقون المال خفية وعلانية –ولو كان بهم خصاصة – فعلي زين العابدين مصدر من مصادر الرزق المجهولة للناس، لا يعرف إلا بعد أن يموت،فيتفقد الناس المصدر فيعرفونه. وكذلك أبناؤه، يتزعمهم الباقر. وهو القائل: إن استطعت ألا تقابل أحدا إلا ولك الفضل عليه فافعل.

أما ابن عمهم عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فكان وثيق العرى بالخلفاء. سأله يزيد بن معاوية يوما كم عطاؤك؟ قال ألف ألف ردهم. قال يزيد: قد أضعفناها لك. قال ابن جعفر. فداك أبي وأمي. وما قلتها لأحد قبلك. فضاعف يزيد عطاءه مرة ثانية.

ولما خرج عبدالله من المجلس، قال جلساء يزيد: تعطي رجلا واحدا أربعة آلاف ألف درهم! قال: ويحكم إني أعطيتها أهل المدينة أجمعين. فما يده فيها إلا عارية.

والحق أن الفقراء كان لهم في أمواله حق معلوم، فكانوا يستدينون في انتظار ورود عطاء عبد الله بن جعفر من العاصمة.

وكان الخلفاء يحجرون على شباب قريش أن يبحروا الحجاز إلا بإذن فأمسى سجنا واسعا لمن فيه منهم. وازداد أهله انعزالا وارتباطا فتراحموا، وتصاهروا، لتصير المدينة مجتمعا مقطوع

القرين، نرى فيه: "سكينة بنت الحسين" يبني بها "مصعب بن الزبير" ثم يبني بضرة لها "عائشة بنت طلحة".. أي أطراف يوم الجمل تجتمع في بيت واحد.

وإليك أطرافا أخرى في أختها فاطمة: ولدتها أم إسحق بنت طلحة. وتزوجها عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان. ويرزقان محمدا. وله بنت من خديجة بنت عثمان بن عروة بن الزبير تدعى حفصة. وأم عروة أسماء بنت أبي بكر. فهؤلاء: رسول الله وخمسة من العشرة المبشرين بالجنة علي وأبو بكر وعثمان وطلحة والزبير يجتمعون في حفصة!

أمام الإمام جعفر الصادق فآية من الآيات.

جده زين العابدين. وزين العابدين وسالم بن عبد الله بن عمر والقاسم بن محمد بن أبي بكر أولاد خالات ثلاثة. هن بنات كسرى يزدجرد.

وأبوه الباقر ولدته لزين العابدين بنت عمه فاطمة بنت الحسن.

وأمه أم فروة بنت "القاسم" بن محمد بن أبي بكر. وقد تزوج أمير المؤمنين علي أم محمد، أسماء بنت عميس، بعد موت أبي بكر. فصار ربيبه، وترعرع في كنفه حتى شهد معه الجمل. وكان على الرجالة. وشهد معه صفين. وولاه مصر حتى قتلته جيوش معاوية في مصر.

وأمها أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر عم القاسم وشقيق عائشة. شهد اليمامة مع خالد. وقتل محكم اليمامة في الحصن فاقتحمه المسلمون. وبعث إليه معاوية بمائة ألف درهم فردها وقال لا أبيع ديني بدنياي.

وعبد الرحمن هو القائل وهو يرفض البيعة ليزيد: "جعلتموها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل".

فجعفر قد ولده النبي عليه الصلاة والسلام مرتين. وعلى مرتين، والصديق مرتين، ليدل بهذا المجد الذي ينفرد به في الدنيا على أنه نسيج وحده.

ومن الناحية الأخرى ولده كسرى مرتين. ليدل الدنيا – من أعلى مواقعها – على أن الإسلام للموالي والعرب. فذلك هو الدين الذي جاء به رسول الله ﷺ. والذي دافع من أجله عن المساواة بين المسلمين، كافة أمير المؤمنين علي.

هكذا وحدت المدينة مجتمعها. ورفعت أبناء الصحابة إلى أعلى مقام. وأهل البيت إلى صدارة المجتمع، يمدون أنسابهم إلى هاماته وأسبابهم إلى طبقاته.

وذات يوم أصهر الحجاج إلى عبد الله بن جعفر في بنته أم كلثوم. فأبرد إليه الخليفة عبد الملك ليسوغ أباها المهر ويعجل طلاقها، لأنه تجاوز قدره. وهي حجة ظاهرة، قد تخفي حجة حقيقية، إذ كان يخشى أن يمد الحجاج بسبب إلى أسرة قد يشمله هداها، أو يأسره الإخلاص لها، أو يبعده عن أ، يكون – بجمعه – لعبد الملك، وبقسوته على من عداه.

* * *

لكن العلم ظل الخصيصة الكبرى "للمدينة". ففيها وضعت القواعد العامة لتطبيق المبادئ الإلهية التي بعثت بها السماء آخر رسلها لإصلاح البشر. ووضعت أسس الدولة ومبادئ الجماعة وانتشر الدين، في القارات الثلاثة المعروفة. لتقدم الحضارة الإسلامية، سياسة وإدارة، وتشريعا، دوليا ومدنيا وجنائيا، واقتصاديا، وقواعد علمية، وعلوما تطبيقية ورياضية، لم تشهدها القرون قبل. وستبنى عليها الحضارات جميعا. فتكون مجازا للبشرية من جهالات القرون الأولى، إلى حضارات العصور الحديثة العلمية والاقتصادية والتشريعية والاجتماعية.

ولما انقضى عهد الرسالة والراشدين الأربعة، تابعت عاصمة الإسلام، وإن لم تعد عاصمة الدولة، رسالتها بالفقه. وهو في الحضارة الإسلامية كحجارة الأساس في البنيان: أن كانت منه قواعد الفكر الإسلامي كافة، وكانت الحرية الفكرية لحمته وسداه، والفضيلة الإنسانية مبدأه ومنتهاه. وفي صلاح الناس، والتخفيف عليهم، وفتح أبواب الرجاء لهم، وتمكينهم من التطور لملاحقة حاجات الأعصر، بأداته "الديناميكية" – المحركة –نحو التقدم، وهي اجتهاد الرأي.

وفي أهل البيت كان النبي مدينة العلم وعلي بابها، وريحانتا الرسول من الدنيا الإمام "الحسن" والإمام "الحسين" يمثلون الجيل الأول. وفي الجيل الثاني كان السجاد – من كثرة السجود – أو زين العابدين – من كمال عبادته – وابناه الإمام الباقر وزيد. وكان لزيد مذهبه.

أما الجيل الثالث من القرون المفضلة فقد تراءى فيه للمسلمين جعفر بن محمد، الصادق، بدر تمام، لجيل كان ختام أجيال.

وأما من عدا أهل البيت فقد نهض عنهم الصحابة وأبناؤهم وأحفادهم بعبء العلم نهضة جديرة بدين يجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة. فاشتهرت بينهم أما المؤمنين عائشة وأم سلمة، وزينب بنت أبي سلمة.، العبادلة الأربعة أبناء العباس، وعمر، والزبير وعمرو، وأبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وبنته حفصة وعروة بن الزبير ابن أخت عائشة، وابن أخيها القاسم بن محمد بن أبي بكر، وراويتها عمرة بنت عبد الرحمن، وهؤلاء الثلاثة أعلم الناس بحديث عائشة، وسالم بن عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب وخارجة بن زيد وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، وأبو بكر بن عبد الرحمن وسليمان بن يسار، وتعلم عليهم جيل جديد: فهي محمد بن شهاب الزهري وأبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، ومحمد بن المنكدر، ومحمد وعبد الله ابنا أبي بكر بن حزم، وربيعة الرأي، وهؤلاء مشيخة مالك بن أنس.

ومالك يعاصر في النصف الثاني من القرن الثاني نهاية الأجيال المفضلة. ثم هو شيخ المدرسة التي نجب فيها محمد بن إدريس الشافعي وتلميذه أحمد بن حنبل.

obeikandl.com

ولقد طالما زاحم التلاميذ أشياخهم في العلم وإن لم يزاحموهم في مكانتهم عند الله والناس.

* * *

ومن المدينة انطلق الفقه الإسلامي إلى العراق، حيث أقام عبد الله بن مسعود زمانا معلما ووزيرا كما سماه عمر، وتعلم عليه تلاميذه وتلاميذ علي، كعبيدة، وعلقمة، والحارث، وعن طريق علقمة تعلمت مدرسة النخعتيين يتقدمها الأسود وعبد الرحمن، ويتوسط عقدها إبراهيم بن يزيد شيخ حماد بن أبي سليمان.

وفي حلقة حماد بالكوفة قضى أبو حنيفة عشرين عاما يتعلم، ليصبح علما على مدرسة الرأي والقياس الذي قعد قواعده الشافعي فانتشر في كل فروع العلم الإسلامي.

وهوى أبي حنيفة مع أبناء علي معروف، وصلة فكره بزعماء أهل البيت واضحة، وإن مذهبه ليقارب المذهب الزيدي أكثر مما يقارب المذهب الحنفي غيره من مذاهب أهل السنة كما قيل.

ولقد استشهد زيد – بن زين العابدين – سنة ١٢١. وفي ذلك العهد جلس أبو حنيفة مجلس حماد بن أبي سلميان بعد وفاته. وشرع يدون بعض مذهبه وكثيرا من الفروع. ثم مكن أبو يوسف للمذهب بتولية زملائه القضاء، ليلزموا الناس به، ثم نشره محمد بن الحسن بتدوينه في كتبه الشهيرة.

وتدوين الفقه في كتاب "المجموع" قد سبق به زيد مدرسة أبي حنيفة. ولعل أبا حنيفة تعلم تدوين الفقه عليه – بل إن الجميع قد قلدوا فيه صنيع أهل البيت أنفسهم. ولديهم الكتب فيها العلم، الأحاديث والفقه، يتعلمونه كابرا عن كابر.

فالحجاز والعراق قد تضامنا في إنتاج الفقه. لتتابعهما بعد ذلك شتى الحواضر، في الفسطاط ودمشق وقرطبة والقيروان،وفي المغرب وفي المشرق، وفي الأندلس، ووسط آسيا.

وظاهر من هذا التأريخ أمور:

١- أن المذاهب الفقهية جميعا بما فيها المذاهب الباقية إلى اليوم لأهل السنة، يتصدرها في الظهور مذهب أهل البيت على يد زيد بن علي زين العابدين. وكذلك يسبق "المذهب الزيدي" مذهب الإمام جعفر الصادق، الذي تبعه الأئمة من نسله،وصار يسمى مذهب "الإمامية". فالصادق صار إماما بموت أبيه الباقر في العقد الثاني من المائة الثانية، ثم كانت وفاته بعد استشهاد عمه زيد سنة ١٢١ بسبعة وعشرين عاما سنة ١٤٨.

أما أبو حنيفة فمات في سجن أبي جعفر المنصور سنة ١٥٠. وأما مالك فمات بعد أبي حنيفة بتسعة وعشرين عاما سنة ١٧٩. والشافعي مات بعد أبي حنيفة بأربعة وخمسين عاما سنة ٢٠٤. ولحق بهم ابن حنبل سنة ٢٤١. وأصحاب المذاهب الأخرى بين معاصرين لهم أو لاحقين.

٢- إن الإمام "جعفر" كما سنرى، ينهى عن استعمال القياس كمثل ما يرفضه فقهاء المدينة عموما والمحدثون خصوصا،وهم زعماء الفقه في المائة الأولى.

وسنرى بعد أن نهى "الصادق" عن القياس لا يعارض الاجتهاد، بل إنه ليأمر به، ويبلغ بمنهاجه في الاجتهاد ما يبلغه سواه.

وسنرى أن منهاجه في الاعتبار والاستخلاص هو منهج الفكر الإسلامي، نقله عنه الفكر العالمي.

٣- أن البيئة التي عاش فيها أهل البيت ستين عاما بعد مجزرة كربلاء، كان منجبة، بظهور العلم والعلماء من الرجال والنساء. فشاركت المرأة في العلم من عهد أمهات المؤمنين. ووجدت الفقيهات في جيل التابعين وتابعي التابعين من أهل السنة، فتصدرت نساء أهل البيت سكينة بنت الحسين (١١٧) رضي الله عنهما. وكانت برزة، تساجل فحول الشعراء، بل الفقهاء.

وهي بهذه المساجلات إمام في استعمال الحرية الشخصية والفكرية[٣٨] تعلم المسلمين والمسلمات، أن المرأة نصف الناس، وأن إظهار مواهبها، وصقلها وتنميتها، خير للنصف الذي هو المرأة، وخير للنصف الآخر. ومن المساواة بينهما تقررت للمرأة حقوقها كاملة، وسلم لها بالحرية الفكرية التي قد تفهم من كلمات الإمام علي بن أبي طالب يوم لقى عائشة، في إثر انتصاره يوم الجمل، فقال لها: غفر الله لك. قالت: ولك.. وما استغفر لها إلا لخطأ منها في الاجتهاد رآه.

وإذا كان النصفان يجتهدان ويجاهدان،فالأمة كلها في حالة تقدم، أو محاولة تقدم – والاجتهاد في ذاته تقدم – بالعلم أو السعي إليه. وهو بعض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(٣٨) زارها الفرزدق بالمدينة. فقالت له: من أعر الناس؟قال:أنا. قالت: بل جرير حيث يقول... فعاد لها في الغداة بشعر جديد يسوغ له قصب السبق.. قالت: بل جرير حيث يقول... وكذلك صنعت في اليوم الثالث إذ عاد بجديد.

ووقفت يوما على عروة بن أذينة شيخ مالك بن أنس فقالت له: أنت الذي يقال له الرجل الصالح وأنت تقول:

إذا وجـــدت أوار الحـــب فـــي كبـــدي عمـــــدت نحـــــو ســـــقاء القـــوم أبتـــــرد

هبنـــي بـــردت يبـــرد المـــاء ظـــاهره فمـــــن لنـــــا علـــــى الأحشـــــاء تتقـــــد

قال: نعم.

قالت: وأنت القائل:

قالـــت وابثثتهـــا وجـــدي وبحـــت بـــه قـد كنـت عنـدي تحـب السـتر فاسـتتر

ألسـت تبصـر مـن حـولي؟ فقلـت لهـا غطـى هـواك ومـا ألقـى علـى بصـري

قال نعم.

فالتفتت إلى جوار، كن حولها، وقالت: هن حرائر إذا كان خرج هذا من قلب سليم قط!

وبهما وبالتقوى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله).

٤- وفي الهدأة الوقور في هذه البيئة ازدهر العلم. على النحو الذي كان حريا بالمدينة، وبأهل البيت، من حفظ لحديث الرسول وتريث في النظر والمناظرة، وتلبث في إبداء الآراء، لما فيها من شبهة المخاطرة، وصدق في خدمة حديث النبي بالعمل به وتعليم الناس إياه.

وإنما اشتعلت الثورات، وشققت الفلسفات، في العراق. ففيها تعاقبت ثورات التوابين، والخوارج، والخارجين – كابن الزبير وابن الأشعث والآخرين – ومن غليان المراجل هنالك أحدثت المبادئ الهدامة أو الغلواء أو الخصومات آثارها، كمثل ما نسب إلى عبد الله بن سبأ أو غيره من عقائد الغلاة الذين تبرأ منهم الشيعة، كما تبرأ الإمام علي ممن ألهوه، فحرقهم بالنار.

لكن آراء الغلاة وأعداء الإسلام لم تكن تكاد تفد على المدينة حتى تخرج منها واهنة أو محطمة.

في جوها النقي، تفتحت أبواب بيت النبي، وتخرج في علومها الأئمة.

زين العابدين

٣٨ – ٩٤

تعاظم بيت زين العابدين في عدد أفراده يوما بعد يوم، وقدم "السجاد" لنا ابنه "الباقر" ثم قدم الباقر ابنه "الصادق". فكانوا مثلا عليا في العزوف عن السلطة والانصراف إلى تعليم الناس العلم الصحيح والعمل الصالح والأسوة الحسنة.

روى عن جابر بن عبد الله وابن عمر إلى جوار روايته علم أهل البيت وحديثهم عن أبيه الحسين وأم المؤمنين أم سلمة. وسمع ابن عباس. ليروي عنه فيما بعد ابناه عبد الله والباقر وخلق كثير. ورأى بعيني المريض العاجز عن الاستشهاد، مصاير أبيه العظيم، وإخوته وأعمامه وأولادهم يوم كربلاء.

وتجلت فيه الفضائل المنبثقة من الورع والرحمة: يصلي لله في اليوم والليلة ألف ركعة. ولهذا سمى "السجاد". إذا توضأ اصفر لونه وإذا قام أرعد من الفرق. ولما سألوه قال: أتدرون من أريد أن أقف بين يديه ومن أناجي؟

ومع تألق عبد الله بن جعفر بالمدينة، وهو الصحابي الذي يحرص الخلفاء في دمشق على مرضاته، وتفريق عبد الله عطاءه الجزل في فقراء المدينة، واستشهاد ابنين له يوم الحرة، وثالث في كربلاء، ومع أنه زوج زينب بنت علي، عمة زين العابدين، مع هذا كله كان زين العابدين يحتل مكانه في الصدارة، ويحمل وصفه بجدارة.

وفي ذلك نص يروى عن مالك بن أنس قال: "سمى زين العابدين لعبادته".

علمته المحنة والورع الحكمة وحسن الخطاب، كان في باكورة حياته على علم عظيم. قال له يزيد يوم أدخل عليه – مريضا – مع نساء أهل البيت الناجيات من كربلاء – أبوك الذي

قطع رحمي وجهل حقي ونازعني سلطاني فصنع الله به ما قد رأيت. قال زين العابدين (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها).

قال يزيد: (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم).

قال زين العابدين: هذا في حق من ظلم لا من ظلم[٣٩].

تتابع على الكذب ولاة الشام والأمصار من عهد معاوية يشتمون عليا بأمر بني أمية، فكان يبقى من كذبهم شئ في عقول العامة، أو الصبية الذين لا يعلمون.

كان عبيد الله بن مسعود من فقهاء المدينة السبعة. وكان معلم عمر بن عبد العزيز وهو صبي أودعه أبوه أخواله – بني عدي قوم عمر بن الخطاب – بالمدينة فسمع يوما شتم علي فقال لعمر. يا بني متى علمت أن الله غضب على أهل بدر؟ قال الصبي: وهل كان علي في بدر؟ قال عبيد الله: وهل كانت بدر كلها إلا لعلي!

فلما ولي عمر الخلافة أبطل شتم أهل البيت. ورد إليهم حقوقهم.

قال رجل من أنصار الأمويين بالشام: دخلت المدينة فرأيت رجلا راكبا على بغلة لم أر أحسن وجها ولا ثوبا ولا سمتا ولا دابة منه. فسألت فقيل هذا علي بن الحسن بن علي. فأتيته – وقد امتلأ قلبي له بغضا – فقلت له: أنت ابن علي بن أبي طالب؟ قال: أنا ابن ابنه. فقلت: بك وبأبيك أسب عليا. فلما انقضى كلامي قال: أحسبك غريبا؟ مل بنا إلى الدار فإن احتجت منزلا

---

(٣٩) ولما جئ بزين العابدين في أسرى كربلاء أقيم على درج دمشق. فقال له رجل من أهل الشام: الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم وقطع قرن الفتنة. قال زين العابدين: قرأت القرآن؟ قال الرجل: نعم. قال قرأت الـ.. حم؟ قال الرجل: نعم. قال: أما قرأت: (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى) قال الرجل: فإنكم إياهم؟ قال نعم. ويقصد الإمام الآية ٢٣ من سورة الشورى: (ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات.قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إن الله غفور شكور) وأول آيات سورة الشورى (حم).

obeikandl.com

أنزلناك. أو إلى مال واسيناك. أو إلى حاجة عاوناك على قضائها. فانصرفت من عنده، وما على الأرض أحد أحب إلي منه.

ويروي أنه احترق البيت الذي هو فيه وهو قائم يصلي. فلما انصرف "من الصلاة" قيل له ما بالك لم تنصرف حين اشتعلت النار؟ قال: اشتغلت عن هذه النار بالنار الأخرى.

وأنه لما حج وأراد أن يلبي أرعد. واصفر وخر مغشيا عليه. فلما أفاق سئل فقال: إني لأخشى أن أقول لبيك اللهم لبيك. فيقول:

لا لبيك ولا سعديك – فشجعوه حتى لبى. فغشى عليه حتى خر عن راحلته.. وكان يرحل من المدينة إلى مكة فلا يقرع راحلته مرة واحدة!

* * *

يقول الأصمعي: "لم يكن للحسين رضي الله عنه عقب إلا من ابنه زين العابدين. ولم يكن لزين العابدين نسل إلا من ابنة عمه الحسن، فجميع الحسينيين من نسله".

أما أكبر صدقته فبالليل. يقول: "صدقة الليل تطفئ غضب الرب".

ومع عظم مكانه كان إذا دخل المسجد تخطى الرقاب حتى يجلس في حلقة زيد بن أسلم، إذا كان هنالك. فيقول له نافع بن جبير بن مطعم: أنت سيد الناس. تأتي تتخطى خلق الله وأهل العلم من قريش حتى تجلس مع هذا العبد الأسود؟ فيجيب: "إنما يجلس الرجل حيث ينتفع، وإن العلم يطلب حيث كان".

obeikandl.com

ولقد كان يريد أن يجلس إلى سعيد بن جبير وقيل له: ماذا تصنع بلقاء سعيد؟ فأجاب: "أريد أن أسأله عن أشياء ينفعنا الله بها"(٤٠).

وزين العابدين لا ينسى أن النبي أمر زيد بن حارثة – وكان مولى النبي – علي بن جعفر بن أبي طالب وجعل له القيادة، فإن قتل كانت لجعفر، فإن قتل كانت للصحابي عبد الله بن رواحة.

وزين العابدين بهذا يضع السوابق لأهل البيت ليتعلموا العلم المقارن من فقه المسلمين كافة. ولذلك سيجلس ابنه الباقر إلى نافع مولى ابن عمر.وسيجلس حفيده الصادق إلى عكرمة (١٠٣) مولى ابن عباس وإلى عطاء بن أبي رباح (١١٤) مولى قريش، يجلس في المسجد الحرام مجلس ابن عباس. كما يجلس الصادق إلى عبد الله بن أبي رافع مولى أمير المؤمنين علي.

فإذا جلس زين العابدين في المسجد جلس بين القبر والمنبر، وانعقدت حلقة كحلقة أبيه في روضة كرياض الجنة، يقول عنها القائل: "إذا دخلت مسجد رسول الله فرأيت حلقة كأن على رءوسهم الطير فتلك حلقة أبي عبد الله مؤتزرا إلى أنصاف ساقيه".

ولقد يتحدث مع سليمان بن يسار (١٠٧) مولى أم المؤمنين ميمونة إلى ارتفاع الضحى. فإذا أرادا أن يقوما قرأ عليهما عبد الله بن أبي سلمة سورة، فإذا فرغ عبد الله من التلاوة دعوا الله سبحانه.

---

(٤٠) وهو بهذا يعلم الجميع أن العلم شرف يسعى إليه الشرفاء. ولو كانوا قمة الشرف. والنبي رسالته التعليم. ومن ذلك كان تنافس أبناء الصحابة على أن يتعلموا العلم وأن يعلموه وكانت المشقة واقتحام المخاطر والفلوات لتحصيله وإنفاقه في الناس. يستوي في ذلك من لا مال عنده كابن حنبل ومن عنده الأموال كيحيى بن معين، كان عنده مليون درهم أنفقها في تحصيل الحديث. أو كابن حزم. قال له أبو الوليد الباجي – عالم المالكية: أنا أعظم منك همة في طلب العلم. أنت طلبته وأنت تعان عليه. تسهر بمشكاة الذهب. وأنا طلبته وأنا أسهر بقنديل السوق. وأجابه ابن حزم: أنت طلبته في حال فاقة تريد تبديلها لمثل حالي. وأنا طلبته في حين ما تعلمه وما ذكرته. لا أرجو إلا علو القدر في الدنيا والآخرة.

ولقد يدخل ابن شهاب الزهري (١٢٤) وصحبه فيسأله فيم كنتم؟ فيجيبه أنهم كانوا يتذاكرون الصوم وأنهم لم يروه واجبا إلا في رمضان فيقول السجاد: الصوم على أربعين وجها. ثم يشرحها له وجها وجها. فمنها ما يجب. ومنها ما هو بالخيار أو الإباحة. الخ.

وفي علمه يقول محمد بن سعد. صاحب الطبقات: "كان زين العابدين ثقة مأمونا، كثير الحديث عن رسول الله ﷺ. عالما. ولم يكن من أهل البيت مثله" ويقول الزهري: "ما رأيت أفقه من زين العابدين لولا أنه قليل الحديث".

وهذه الشهادة بالفقه من شيخ مالك بن أنس تعلن رأي جيل التابعين.

بل إن الزهري يعلن مكانة زين العابدين بين كل الأحياء بقوله: "ما رأيت قرشيا أفضل منه". قصد إليه يوما، ونفسه تكاد تبسل من ذنب ألم به. فرده الإمام إلى صميم الإسلام قال: "قنوطك من رحمة الله التي وسعت كل شئ أعظم من ذنبك".

والشافعي الذي يقول في ابن شهاب الزهري: "لولا الزهري لذهبت السنن من المدينة" يضع زين العابدين في أعلى مكان. فيعده أعلم أهل المدينة.

وكان كثير البكاء من يوم كربلاء. فقيل له في ذلك فقال: "إن يعقوب عليه السلام بكى حتى ابيضت عيناه من الحزن على يوسف – ولم يتحقق موت يوسف – وقد رأيت بضعة عشر رجلا من أهلي يذبحون في غداة واحدة".

وربما فسر لنا هذا المقال بعض أسباب انصرافه إلى تعليم المسلمين دينهم، لصلاح دنياهم، وإجماع المسلمين على إجلاله[٤١].

---

(٤١) حج هشام بن عبد الملك في خلافة أبيه – فرأى رجلا ينجفل الناس إليه، ويفسحون في الطواف له، في حين لا يحفل الناس بابن الخليفة، فسأل من هذا؟ وسمع الفرزدق السؤال فأنشد ميميته الطويلة المشهورة في الأدب العربي ومما جاء فيها:

وفي سنة ٩٤، سنة الفقهاء، مات جمع من فقهاء المدينة، عروة بن الزبير، والسعيدان: ابن جبير وابن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن. وارتفعت فيها أو في سنة ٩٥ روح زين العابدين إلى الرفيق الأعلى. مخلفا أربعة عشر ولدا منهم عشرة رجال كبيرهم محمد، أبو جعفر، المكنى بالباقر، وفيهم زيد بن علي.

هـذا ابـن خيـر عبـاد الله كلهـم هـذا التقـي النفـي الطـاهر العلـم
هـذا الـذي تعـرف البطحـاء وطأتـه والبيـت يعرفـه والحـل والحـرم
إذا رأتـه قـريش قـال قائلهـا إلـى مكـارم هـذا ينتهـي الكـرم
ينمـى إلـى ذروة العز التـي قصـرت عـن نيلهـا عـرب الإسـلام والعجـم
يغضـي حيـاء ويغضـي مـن مهابتـه فـلا يكلـم إلا حـين يبتسـم
هـذا ابـن فاطمـة إن كنـت جاهلـه بجـده أنبيـاء الله قـد ختمـوا

الله شـرفه قـدرا وعظمـه جـرى بـذاك لـه فـي لوحـه القلـم
ولـيس قولـك مـن هـذا بضـائره العـرب تعـرف مـن أنكـرت والعجـم
مـا قـال "لا" قـط إلا فـي تشـهده لـولا التشـهد كانـت لاؤه نعـم
مـن معشـر حـبهم ديـن. وبغضـهم كفـر. وقـربهم منجـى ومعتصـم
مـن يعـرف الله يعـرف أوليـة ذا فالـدين مـن بيـت هـذا نالـه الأمـم

وغضب هشام وأرسل زين العابدين للفرزدق أربعة آلاف درهم، ردها الفرزدق قائلا:

إنما مدحتك بما أنت أهله وردها الإمام قائلا: إنا أهل بيت إذا وهبنا شيئا لا نستعيده.

obeikandi.com

الباقر

٥٧ – ١١٤

انصرف الإمام محمد الباقر للعلم بكله. فهذا أول درس أبيه له. بقر العلم أي تبحر فيه. فسمي الباقر.

روى علم أبيه وجديه الحسين والحسن وجد أبيه – علي – وجادل عبد الله بن عباس.

وعنه روى بقايا الصحابة والتابعين. وكان يقصد الحسن البصري ونافعا مولى ابن عمر.

سأل سائل عبد الله بن عمر في مسجد الرسول فأشار إلى حيث يجلس الباقر وقال: "اذهب إلى هذا الغلام وسله وأعلمني عما يجيبك" فلما عاد إليه الجواب قال: "إنهم أهل بيت مفهمون".

وروى عنه الفطاحل: أخوه زيد وابنه جعفر الصادق. ثم الأوزاعي إمام الشام. وابن جريج إمام مكة. وأبو حنيفة. وعبد الله بن أبي بكر بن حزم شيخ مالك إمام المدينة. وحجاج بن أرطاه (١٤٥) ومكحول بن راشد. وعمرو بن دينار (١١٥). ويحيى بن كثير (١٢٩) والزهري (١٢٤) وربيعة الرأي (١٣٦) شيخا مالك. والأعمش (١٤٨) والقاسم بن محمد بن أبي بكر (١٠٦) وأبان بن تغلب (١٤١) وجابر الجعفي (١٢٨) وزرارة بن أعين (١٥٠) والثلاثة الأخيرون من كبار علماء الشيعة ورواة ابنه جعفر الصادق.

openkandil.com

يقول محمد بن المنكدر –شيخ مالك بن أنس – في الباقر: "ماكنت أرى أن مثل علي بن الحسين يدع خلفا يقاربه في الفضل حتى رأيت ابنه محمدا الباقر".

وما هو في سجاياه إلا خليفة "السجاد". يطوف بالبيت فيركع، ويسجد، فإذا مكان سجوده قد بلله الجمع..

يقول عنه الحسن البصري: "ذلك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء".

عايش الباقر أباه زمانا طويلا. ولم يمتحن محنة أبيه في كربلاء، أو محنة أخيه زيد إذ أخرجه أهل الكوفة وخذلوه، ولم تعتور حياته الامتحانات المتعاقبة التي اعتورت حياة ابنه – الإمام الصادق – أو خلافات بني عمومته – أبناء الحسن – أو الإرهاب الفكري أو الفعلي من الخليفة المنصور. فأتيح للباقر أن يبلور اتجاه أهل البيت – من نسل الحسين – إلى العلم والتعليم، ويبرز فيه العناية بفقه العبادات والمعاملات. وكثر ترديد اسمه مصاحبا لاسم ابنه الإمام الصادق في كتب الفقه الشيعي. وإليه يرجع أصحاب الكلام في العقائد الشيعية، وكثير من الفقه المستنبط من القرآن والسنة.

روى عنه جابر الجعفي أكثر من خمسين ألف حديث وروى عنه محمد بن مسلم ثلاثين ألفا. وكان عبد الملك بن مروان يعرف له حقه، وهو في صدر شبابه، في حياة أبيه.

إليك أمثالا لفكره في السياسة والفقه والتفسير:

– روى الكسائي: دخلت على الرشيد فقال: هل علمت أول من سن الكتابة على الذهب والفضة؟ قلت: عبد الملك بن مروان. قال ما السبب؟

قلت: لا أعرف.

قال: كانت القراطيس للروم وكان أكثر من بمصر على دينهم. وكانت تطرز "أبنا وابنا وروحا" وتخرج من مصر تدور في الآفاق. فأمر عبد العزيز – وكان عامله على مصر – بإبطال ذلك. وأن تطرز بصورة التوحيد. مشهدا الله ألا إله إلا هو.. فلما وصلت القراطيس إلى ملك الروم كتب إلى عبد الملك إن لم يرد هذا الطراز على ما كان عليه فسينقش على القراطيس شتم النبي. فاستشار عبد الملك، فلم يجد عند أحد رأيا، فاستشار الباقر.

فقال له: لا يعظم عليك هذا الأمر من جهتين. الأولى: إن الله عز وجل لم يكن ليطلق ما تهدد به صاحب الروم. والثانية أن تتهدد من يتعامل بغير دنانيرك. فلما علم ملك الروم أن دنانيره سيبطل التعامل بها إن حوت شتما. كف عما تهدد به.

– وفي الاحتكار ورفع الأسعار. يقول في مسجد الرسول: قال رسول الله ﷺ وآله: "أيما رجل اشترى طعاما فحبسه أربعين صباحا، يريد غلاء المسلمين، ثم باعه فتصدق بثمنه، لم يكن كفارة لما صنع".

– واليمين عند الشيعة لا تنعقد إلا قسما بالله وأسمائه الحسنى وصفاته الدالة عليه صراحة، فمن حلف بغيرها لا يحنث إذا لم يفعل. سئل الباقر عن قوله تعالى: (والليل إذا يغشى) (والنجم إذا هوى) وما إلى ذلك فأجاب: إن لله عز وجل أن يقسم بما شاء من خلقه وليس لخلقه أن يقسموا إلا به.

– وسئل أبالناس حاجة إلى الإمام؟ فأجاب: أجل. ليرفع العذاب عن أهل الأرض. وذكر قوله تعالى: (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم).

تعاقب على الخلافة في حياة الباقر أربعة من أبناء عبد الملك وزوج ابنته عمر بن عبد العزيز – خامس الراشدين في مدة خلافته – وكان عمر يتردد على الإمام الباقر يستنصحه. والباقر يوصيه بالمسلمين أجمعين – فيقول له بين ما يقول: "أوصيك أن تتخذ صغير المسلمين ولدا. وأوسطهم أخا. وأكبرهم أبا. فارحم ولدك. وصل أخاك. وبر والدك. فإذا صنعت معروفا فر به" أي تعهده.

وكان نشر التشيع لأهل البيت همه. قال سعد الإسكافي: قلت لأبي جعفر الباقر: "إني أجلس فأقص وأذكر حقكم وفضائلكم" قال: "وددت لو أن على كل ثلاثين ذراعا قاصا مثلك".

وحج هشام بن عبد الملك في أيام ملكه (١٠٥– ١٢٥) فرأى الباقر بالمسجد يعلم الناس في مهابة وجلال، تعاليم الإسلام وآدابه وفرائضه وأحكامه والناس خشع في مجلسه. وغلبت هشاما غريزة المعاجزة لأهل البيت. فبعث إليه من يسأله: ما طعام الناس وشرابهم يوم المحشر؟ وأجابه الباقر بآيات الكتاب الكريم. واستطرد في تعليمه وتعليم من أرسله.

وسمعه الحجيج – عامئذ – يقول للناس: "الحمد لله الذي بعث محمدا بالحق نبيا وأكرمنا به. فنحن صفوتة الناس من خلقه وخيرته من عباده وخلفائه. فالسعيد من تبعنا. والشقي من عادانا".

ورجع هشام إلى عاصمته.. فأرسل في دعوة الباقر، وابنه الصادق، إلى قصبة الملك في دمشق.

obeikandl.com

يقول الصادق: "فلما وردنا دمشق حجبنا ثلاثا. ثم أدخلنا في اليوم الرابع".. وكأنما أراد هشام أن يظهرهما على أنه إذا لم تكن له مكانة في جوار البيت العتيق أو مسجد الرسول أو كانت الكرامة كلها، في الحج الأكبر، لأهل البيت، فإن له بيتا في دمشق وحجابا ومواعيد.

* * *

والباقر، كالأئمة من أبنائه، يفضلون عليا على سائر الصحابة. لكنهم لا يبرءون من الشيخين:

يقول لجابر الجعفي: "يا جابر بلغني أن قوما بالعراق يزعمون أنهم يحبوننا ويتناولون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما. ويزعمون أني أمرتهم بذلك.

فأبلغهم أني إلى الله منهم برئ. والذي نفس محمد بيده لو وليت لتقربت إلى الله بدمائهم. لا نالتني شفاعة محمد أبدا إن لم أكن أستغفر لهما وأترحم عليهما".

وهو لا يترحم عليها فحسب. ولكنه يأمر تلميذه بأن يتولاهما. وأن يبرأ من أعدائهما. يقول لتلميذه سالم: "يا سالم. تولهما. وابرأ من عدوهما. فإنهما كانا إمامي هدى رضي الله عنهما". بل إنه يتخذ عمل أبي بكر حجة في الفقه: سئل عن حلية السيف فجوزها، قال: "لا بأس به قد حلى أبو بكر الصديق رضي الله عنه سيفه".

قال السائل: وتقول الصديق؟ فوثب وثبة واستقبل القبلة ثم قال: "نعم الصديق. فمن لم يقل الصديق فقلا صدق الله له قولا في الدنيا والآخرة".

وفي سنة ١١٤ اختاره الله إلى جواره لتبدأ إمامة ابنه جعفر الصادق.

الفصل الثاني

إمام المسلمين

"إن الله أراد منا شيئا وأراد بنا شيئا. فما أراده بنا طواه عنا. وما أراده منا أظهره لنا. فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا".

"الإمام الصادق"

ولد الإمام الصادق في السابع عشر من ربيع الأول سنة ٨٢ على قول، أو غرة رجب. وفي أقوال أخرى أنه ولد سنة ٨٠ أو سنة ٨٣. وتتابع بعده أبناء الباقر، ولهذا يكنى الباقر أبا جعفر. أما أخوه الشقيق فعبد الله.

وأما أولاد الصادق فإسماعيل وعبد الله – وبه يكنى أبا عبد الله – وأم فروة من زوجته فاطمة بنت الحسين.. بن الحسين بن علي، وموسى "الكاظم" وإسحق ومحمد. وأمهم أم ولد، تدعى حميدة.، العباس وعلي وأسماء من أمهات متفرقات.

واسم جعفر في بيت زين العابدين مذكر بأول الشهداء من بيت أبي طالب. فعلي هو الثاني فيه. والحسين هو الثالث.

أما الأول فجعفر بن أبي طالب قائد جيش مؤتة وشهيدها، الطيار في الجنة، وذو الجناحين. كما وصفه رسول الله ﷺ – وكما روى البخاري ومسلم: قال له رسول الله "أنت أشبهت خلقي وخلقي".

obeikandl.com

وهو أول زوج لأسماء بنت عميس[٤٢] جدة أم فروة أم جعفر الصادق.

ولقد مر بنا كيف ولده رسول الله مرتين، والصديق مرتين، ليدل التاريخ على أنه نسيج وحده. وأن كسرى يزدجرد ملك الفرس قد ولده مرتين. ليدل على أن الإسلام للموالي والعرب.

فالباقر – وهو من هو – أكفأ الناس لأم فروة[٤٣] المنحدرة من صلب أبي بكر أول الخلفاء الراشدين، والقاسم بن محمد[٤٤] الذي يرشحه للخلافة عمر بن عبد العزيز – خامس الخلفاء الراشدين.

وكأنما سلم الباقر ابنه شعار حياته في مقولتين صيرتاه ربانيا من كل وجه. الأولى: "شيعتنا من أطاع الله". والثانية: "إن الله خبأ رضاه في طاعته. فلا تحقرن من الطاعات شيئا فلعل رضاه فيه. وخبأ سخطه في معصيته. فلا تحقرن من معصية شيئا فلعل سخطه فيه. وخبأ أولياءه في خلقه. فلا تحقرن أحدا فلعله ذلك الولي".

---

(٤٢) يقال عن أمها "هند" أكر الناس أحماء: أما أسماء فزوج جعفر ولها منه عبد الله وزوج أبي بكر ولها منه محمد. وزوج علي ولها منه يحيى. أما أخواتها فميمونة أم المؤمنين ولبابة زوج العباس عم النبي وجدة خلفاء الدولة العباسية. وسلمى زوج حمزة بطل أحد وشهيدها وعم النبي. وأم الفضل الكبرى "أخت أسماء لأمها" أم خالد بن الوليد. وهكذا تتصل بأسماء بنت عميس أسماء هي أحرف الهجاء في تاريخ الإسلام: النبي وعميه وابني عمه والصديق وسيف الإسلام خالد.

(٤٣) حجت أم فروة متنكرة فاستلمت الحجر بيدها اليسرى فقال لها رجل لا يعرفها: يا أمة الله أ×طأت السنة! فأجابت يا هذا إنا عن علمك لأغنياء.

(٤٤) وللقاسم وأبيه أكبر الصلات بأم المؤمنين عائشة. إذ ضمته إليها بعد مقتل أبيه محمد، على أيدي جند معاوية. ومحمد ربيب علي. سيره معها بعد وقعة الجمل إلى المدينة في كوكبة في النساء في ملابس الرجال. وكان تسيير أخيها معها كرامة يحفظ بها أخو الرسول أم المؤمنين.

وفي بيت عائشة سقى القاسم علمها الذي أارد عمر بن عبد العزيز تدوينه عن طريقه، وعمر خليفة، حتى لا يضيع علم المدينة. فكتب بذلك إلى قاضيه ووالية على المدينة أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم.

وسنرى الإمام جعفر الصادق يروي عن خاله عبد الرحمن بن القاسم وعن عروة بن الزبير "ابن أسماء أخت عائشة". وعروة من كبار رواتها ورواة الصحابة.

تلقى الصادق من أبيه كل ما وعاه قلبه وقرأ كل ما حوته كتبه. واستمع إلى علماء العصر. وانتفع بعلوم جده لأمه القاسم بن محمد بن أبي بكر (١٠٦) وكان مثلا عاليا للأمة وواحدا من الأعمدة السبعة المسمين "علماء المدينة السبعة"[٤٥]. يعلن عمر بن عبد العزيز أنه "لولا خوف الفتنة من بني أمية لاستخلفه على الأمة" ويوصي عمر عماله أن يكتبوا السنن من عنده. فهذا رجل له ورع عمر بن عبد العزيز، وعنده كل علم المدينة، وإنه ليستطيع أن يقول – من صلة علي الوثقى بأبيه محمد بن أبي بكر – إنه أوثق أهل بيته صلة برسول الله ﷺ. وبأول من تبعه، عليا كان أو أبا بكر. بل بهما معا.

وعندما نذكر أن القاسم بن محمد ظل مصدرا للعلم حتى شارف الصادق ربع القرن من حياته، وأن الصادق شهد حلقات عكرمة مولى ابن عباس (١٠٤) وعطاء بن أبي رباح، بمكة حيث كان يجلس ابن عباس، وأن أوامر الولاة في الموسم كانت "لا يفتي الناس إلا عطاء"، كما شهد بالمدينة حلقة عبد الله بن أبي رافع – مولى أمير المؤمنين علي – الذي أملى علي عليه كتابه إلى معاوية، وحلق خاله عبد الرحمن بن القاسم، وعروة بن الزبير (٩٤) الراوية عن خالته عائشة، ومحمد بمن المنكدر (١٣٠) شيخ مالك، فليس علينا أن نحاول البحث عما تلقاه جعفر بن محمد الصادق في صباه.

ولقد كان علم أهل البيت حسبه – فكيف إذا اجتمع إليه علوم هؤلاء، ليملأ بالفقه الشيعي وبالفقه المقارن مدينة الرسول، من يوم مات أبوه وهو بعد في ثلاثيناته.

والصبي من "أهل البيت" لا ينفق صباه في "عمل لا شئ" فذلك هو اللهو. أو في "عدم عمل شئ". فهذا هو الفراغ.. وعلى الأجيال المتعاقبة منهم تبعات في تعاقب الإمامة. لا تدع لهم محيصا عن الإحاطة الكاملة بما لدى غيرهم من علم، فوق علمهم. وما هو إلا القرآن والسنة والسيرة. والقرآن كما يقول ابن عباس "في بيتهم نزل". والسنة من بيتهم صدرت. والسيرة سيرتهم.

---

(٤٥) يقول فيه يحيى بن سعيد (١٤٣) تلميذ فقهاء المدينة السبعة: "ما أدركنا بالمدينة أحدا نفضله على القاسم" وابن حنبل يقول في يحيى "أثبت الناس".

واللغة طريق ذلك كله، وهي بعد حصيلته، وإنك لتدرك منزلة جعفر بن محمد في البيان العربي من تداوله للتفسير في اقتدار على تخريج المعاني لا قرين له. وسنراه غدا عمدته النصوص في الفقه والدين، يستخرج منها أعمق المعاني بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة، شأن أمراء البيان. ومن تكن النصوص عمدته الأولى، فالبلاغة عدته الكبرى.

ولئن لم يتميز الأطفال أو الصبية في بيت زين العابدين والباقر بخصوصيات تكبر وتنمو فتبرز إذ هم شيوخ وأئمة، إن بيت زين العابدين ذاته كان "خصوصية" في مجتمع الإسلام. فيه المثل الأعلى من العلم المحيط والورع الكامل والتفرغ للخدمة العامة، وتعلق القلوب به، واتجاه الأبصار تلقاءه. على هذا درج بيت زين العابدين، مع الاستمرار والاستقرار. فلم يعكر الصفو فيه غير مصرع زيد في سنة ١٢١، بعد إذ خذله أهل الكوفة في مخرجه، فمصرع ابنه يحيى. وحمل الصادق التبعة في ذوي رحمه – منذ صار إماما بوفاة الباقر سنة ١١٤ – فكان يحنو على الأحياء من أبناء عمه زيد، ويأسو جراحات من سقط آباؤهم في الحرب من رجال زيد، فبعث ألف دينار فرقت في ورثتهم.

* * *

وليس أحد بحاجة في ترجمة أئمة أهل البيت ليسترسل في وصف خصال من يرث أخلاق الأنبياء ويعلمها.

فلنستحضر، ونحن في بيت النبي، ما كان يصنعه النبي، ولنتيقن أن الإمام الصادق كان يحاول أن يصنع نظيره. ولنستحضر فعال علي وزهراء النبي، والحسن والحسين، وزين العابدين، والباقر. فهي أصول يتلقاها الخلف عن السلف، ليعملوا بها، ثم يعلموا بها.

وربما أجزأ في هذا المقام ذكر أمثال عادية من الحوادث اليومية تصور صميم "الشخصية". وفيما نذكره دلائل على كثير لم نذكره.

فحياة الإمام مدرسة وتطبيقاتها. والعمر أيام تتكرر. والحياة جماع أعمال يدل بعضها على البعض الآخر. ومنها الجزئي الذي يستنبط منه الكلي. وكثيرا ما كان العمل الواحد "رد فعل" عفوي أو فوري، صادرا من عدة قواعد يجري عليها العقل أو الشعور أو السليقة أو الطريقة – فردود الأفعال شهادات عيان بدخائل الإنسان.

١– مات بين يدي الإمام ولد صغير. فبكى وقال: "سبحانك ربي لئن أخذت لقد أبقيت. ولئن ابتليت لقد عافيت".

وحمله إلى النساء. وعزم عليهن ألا يصرخن. وقال "سبحان من يقبض أولادنا ولا نزداد له إلا حبا. إنا قوم نسأل الله ما نحب فيعطينا. فإذا نزل ما نكره فيمن نحب رضينا".

فأي قلب، في اطمئنانه واتزانه، كمثل ذلك الذي يفيض بالشكر، حيث يغيض الصبر عند الغير!

٢– ونهى أهل بيته عن الصعود – فدخل يوما فإذا جارية من جواريه تربي بعض ولده، قد صعدت السلم، والصبي معها. فلما نظرت الإمام ارتفعت لعصيانها وسقط الصبي من يدها. فمات. فخرج الصادق متغير اللون. فسئل عن ذلك فقال: "ما تغير لوني لموت الصبي. وإنما تغير لوني لما أدخلت على الجارية من الرعب" ثم قال لها بعد ذلك: "أنت حرة لوجه الله، لا بأس عليك".

فهذا أمر واحد عادي، تبعته وقائع ثلاثة غير عادية، أعقبها من الإمام تصرفات لا تصدر إلا عن الإمام. في كل واحدة منها أنواع فضائل. تبدأ باحترام إنسانية الإنسان. وتنتهي بعطاء، دونه كل عطاء، يختمه بالكلمة الطيبة – لا بأس – ويبدؤه بأعلى القيم الإنسانية. إذ يمنحها حريتها.

٣– وذهب مرة يعزي أحد المصابين بفقد ولده. وانقطع في الطريق شسع نعله، فتناوله من رجله ومشى حافيا. فخلع ابن يعفور شسع نعله وقدمه له. فأعرض عنه كهيئة المغضب وقال: لا. فصاحب المصيبة أولى بالصبر عليها.

فالإمام لا يلقي متاعبه على أحد دونه. بل يتحمل الأذى ليتعلم الناس وجوب العمل، ولزوم التحمل. وليعلم الكبراء أنهم كبراء بما يضربونه من المثل. وليدرك الجميع أن الصبر على المصيبة شطر الإيمان. وأحق الناس به من أتيحت الفرصة له.

٤- وذات يوم دعا للطعام عابر سبيل لم يقرئه السلام. فراجعه حضاره متسائلين بين يديه: أليست السنة أن يسلم الرجل أولا، ثم يدعى للطعام؟ فأجاب الإمام "هذا فقه عراقي فيه بخل".

ففقه الإمام "علوي" يبدأ بالعطاء. وعملي فيه مبادرة. واجتماعي يسعى به المعطي إلى الآخذ. وإسلامي، إنساني، كله كرامة.

لقد ولد في دار شعارها البدار، بالعطاء مع الإخفاء. حتى الصدقة يقول فيها الباقر: "أعط ولا تسم. ولا تذل المؤمن".

وفي ذلك السنة.. وسنرى تطبيقات شتى من الإمام لهذا الفقه في المنهج الاقتصادي..

٥- وصحا رجل من الحاج فلم يجد هميانه "الكمر الذي يلفه المحرم حول بطنه وفيه نفقته من النقود" فخرج فوجد الإمام الصادق يصلي فتعلق به وهو يقول: أنت أخذت همياني.

قال الصادق: كم كان فيه؟ قال: ألف دينار. فأعطاه ألف دينار. ومضى الرجل فوجد هميانه فرجع يعتذر ويرد ألف دينار. فأبى الصادق أن يأخذها وقال: شئ خرج من يدي فلا يعود.

قال الرجل لمن حوله:من هذا؟

قالوا: جعفر الصادق. قال: لا جرم هذا فعال مثله.

فإمام المسلمين لا ينعزل عنهم، فلا ينماز مهم، حتى ليخطئ الجاهلون منهم في شخصه. فيعرض عن الجاهلين. ويخف ليخفف كرب المكروب، لا يحزنه وهمه أو اتهامه، وإنما تحزنه همومه. فيشركه فيها بالصنيع النابه مرة إثر أخرى.

والناس أسمع للصوت الذي لا صرير له. وأبصر بالإخلاص الذي لا يتصايح صاحبه به. والأفضال أفعال تدرك آثارها الحواس الخمسة.

ولا نستطرد في السرد. ففي كل واقعة سلفت "عدسة" صغيرة تريك العالم الكبير الذي وراءها، من مناقب كالنجوم وإن كان أصحابها من البشر.

هذه سماء تسعى على الأرض. وهؤلاء بقية النبي عليه الصلاة والسلام يعيشون في الدنيا!

مجالس العلم:

شهد الإمام الصادق انحدار الناس بعد عصر الخلفاء الراشدين، ورأى بعين الصبي المأمول من أهل بيت الرسول ما صنعه عمر بن عبد العزيز في خلافته بين سنتي ٩٨، ١٠١ إذ أعاد الدين غضا في نحو من ثلاثين شهرا، وأثبت للدنيا، أن "المدة" كما سمى الناس خلافته، كانت كافية لتعيد الناس إلى الإسلام الصحيح عندما يوجد خليفة صادق العزم، يتخذ الخلافة – كما قال – سبيلا إلى الجنة.

وكان بعض الصالحين يستعجلون عمر ليصنع كل ما صنع في أول يوم ولي الخلافة. قال له ابنه عبد الملك: "يا أبت ما بالك لا تنفذ الأمور، فوا لله لا أبالي في الحق لو غلت بي القدور" لكن عمر يتأتى للأمور في رفق وأناة وإصرار. قال: "لا تعجل يا بني إن الله تعالى ذم الخمر مرتين، وحرمها في الثالثة. وإني أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة، فيدفعوه جملة، فتكون فتنة". وبهذا قدر على أن يرد المظالم وأغنى الله الناس على يديه. فأصبح عمر لا يجد فقراء يوزع المال عليهم. في المدينة أو في القرية.

لكن الإمام "الصادق" تعلم من حياة الخليفة الصادق العزم:أن إصلاحاته لم تؤت ثمارها بعد مماته، إذ دمرها الخلفاء الذين جاءوا بعده، وتتابع الباقون يدمرون.

وشهد الإمام الصادق مقدم بني العباس وكيف ناقضوا شعارات دولتهم وحكموا حكم جاهلية.

هكذا رأى رأي العيان أن صلاح الأمر لا يكون بتولي السلطة، أو بمجرد إصلاحها مدة قصيرة أو طويلة. وإنما الصلاح في إصلاح الأمة فكيفما تكونوا يول عليكم. ولكل أمة الحكومة التي تستحقها.. واستيقنت نفسه الصواب فيما صنعه أبوه وجده، وهو أن يعلموا الأمة. فإذا تعلمت صلحت فلم يستضعفها حكامها. وهي عندئذ تأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر وتشركهم تبعاتهم.، فالأمة القوية لا تظلم حكامها ولا يظلمونها.

وبشعار الثقة بالله سبحانه "الله وليي وعصمتي من خلقه" وبنقش الخاتم الذي يعلن مصدر قوته "ما شاء الله. لا قوة إلا بالله. استغفر الله". قصد إلى مجلس العلم، في مسجد النبي أو في داره، يستعمل البعد المكاني، حيث يجلس للتعليم في مدينة الرسول، والبعد الزماني، فهو تابعي يعيش في جيل التابعين وتابعي التابعين،والبعد الثالث وهو ارتفاع نسبه إلى النبي وعلي.

أما البعد الرابع فعمق علمه وعلم أبيه وجده.

* * *

في هذا المجلس المهيب بالمدينة أو بالكوفة، يجلس رجل ربعة. ليس بالطويل ولا بالقصير. أزهر له لمعان كالسراج. يسعى نوره بين يديه. رقيق البشرة، أسود الشعر جعده، أشم الأنف. أنزع قد انحسر الشعر عن جبينه فبدا مزهرا، له إشراق. وعلى خده خال أسود – المسلمون أيامئذ أحوج إليه ليعلمهم، منهم إليه ليحكمهم.. كل ما يحيط به يوحي بالرجاء في فضل الله، فلما طعن في السن زاد جلالا وسناء وإحياء للأمل.

يلبس الملابس التي عناها جده عليه الصلاة والسلام حينما قال: "كلوا واشربوا والبسوا في غير سرف ولا مخيلة".

رآه سفيان الثوري وعليه جبة خز دكناء فقال: يابن رسول الله ما هذا لباسك! فقال: "يا ثوري. لبسنا هذا لله، ثم كشف عن جبة صوف يلبسها، وقال: ولبسنا هذا لكم".

كان جده علي يختار الخشن من الألبسة.. ويلح الجوع عليه فيعلل معدته بقرص شعير.يخيط نعله إن لم يكن مشغولا، أو يتركه لمن يخيطه بأجر إذا انشغل. لكن الزمان يتغير فيغير الصادق ليظهر أثر النعمة. ويقول للناس: "إذا أنعم الله على عبده بنعمة أحب أن يراها عليه لأن الله جميل يحب الجمال".

ويقول: "إن الله يحب الجمال والتجمل، ويكره البؤس والتباؤس..".

والنظافة من الإيمان. فيها الكرامة والسلامة للنفس وللأسرة وللمدينة. فعلى المرء كما يقول الإمام: "أن ينظف ثوبه ويطيب ريحه ويجصص داره ويكنس أفنيته".

وذات يوم رآه "عباد بن كثير البصري" في الطواف فقال له: تلبس هذه الثياب في هذا الموضع وأنت في المكان الذي أنت فيه من علي؟ فأجاب كما يروي الإمام نفسه فقلت: فرقبي – نسبة إلى "فرقب" حيث تصنع ثياب كتان أبيض – اشتريته بدينار. وقد كان علي في زمن يستقيم له ما لبس فيه. ولو لبس مثل ذلك اللباس في زماننا لقال الناس: هذا مرائي مثل "عباد"..

قيل له يوما: كان أبوك وكان... فما لهذه الثياب المروية "حرير مرو".

فأجاب: ويلك فمن (حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق)؟

وإنك لترى آثار النعمة على مالك وأبي حنيفة، وإجابات مشتقة بدقة من هذه الإجابات، في ردود الرجلين بشأن ملابسهما وأنعم الله عليهما – وكان كلاهما لباسا – فالمذموم من الثياب ما فيه خيلاء. والمحمود ما كان إظهارا لنعمة الله على عبده. حتى تلميذه العظيم الثالث سفيان

الثوري – وهو إمام الزهد والورع والحديث والفقه – قد انتفع بدروس الإمام في الملبس فأمسى يقول: الزهد في الدنيا هو بقصر الأمل. ليس بأكل الخشن ولا بلبس الغليظ. ازهد في الدنيا ثم نم. لا لك ولا عليك. إن الرجل ليكون عنده المال وهو زاهد في الدنيا. وإن الرجل ليكون فقيرا وهو راغب فيها.

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يلبس ما تيسر من الصوف تارة ومن القطن تارة ومن الكتان تارة. وكانت مخدته من أدم حشوها ليف نخل. ولما قال له رجل يا رسول الله أنا أحب أن يكون ثوبي حسنا ونعلي حسنة. أفمن الكبر ذاك؟ قال: "لا. إن الله جميل يحب الجمال. الكبر بطر الحق وغمط الناس".

ولم يعب الصحابة بعضهم على بعض الملابس من أعلى وأدنى. لا يعيب صاحب الخز على صاحب الصوف ولا صاحب الصوف يعيب على صاحب الخز.

* * *

في هذا المجلس تتلمذ للإمام جعفر وروى عنه – كما يقول أرباب الإحصاءات – أربعة آلا فمن الرواة وكنب عنه أربعمائة كاتب.كلهم يقول: قال جعفر بن محمد.

فأي مجلس كان ذلك المجلس! تتراءى فيه أشياء من رسول الله ﷺ. بعضها مادي يجري في أصلاب رجل بعد رجل. وبعضها معنوي يتراءى في معانيه وفحوى مقولاته، لكل هؤلاء.

ليس بالمجلس لجاجة ولا حجاج عقيم. يقول للتلامذة: "من عرف شيئا قل كلامه فيه. وإنما سمي البليغ بليغا لأنه يبلغ حاجته بأدنى سعيه".

إذا سأل سائل عن خلافات الصحابة أجاب: "علمها عند ربي في كتاب. لا يضل ربي ولا ينسى".

يهتدي بهديه الكبراء في الامتناع عن الجواب في خلاف الصحابة. يقول أحمد بن حنبل إذ يسأل عما كان بين الصحابة: كان بينهم شئ الله أعلم به. ومع ذلك يعجب ويتساءل عن طلحة والزبير: أكانا يريدان أعدل من علي؟

ولا يضيع الحق في المجلس: سمع أن أحد الولاة نال من أمير المؤمنين علي..! فوقف الصادق فقال: "ألا أنبئكم بأعلى الناس ميزانا يوم القيامة وأبينهم خسرانا؟ من باع آخرته لغيره.. وهذا هو الفاسق".

وعرف الناس الفاسق الذي باع آخرته لمن يشتهون أن يقدح لهم في علي بن أبي طالب.

والمقياس عند صاحب المجلس هو الإخلاص لله والرسول. يقول ويروي عن آبائه عن أمير المؤمنين علي: "قال رسول الله ﷺ: لا قول إلا بعمل ولا قول ولا عمل إلا بنية. ولا قول ولا عمل ولا نية إلا بإصابة السنة".

والقاعدة هي المساواة بين الناس، مساواة فطرية – مهما اختلفت العقائد والأجناس – يقول: "الناس في آدم مستوون". حتى عبدة النار يقول فيهم: "سنوا بهم سنة أهل الكتاب".

وللنساء والبنات عنده المكانة العالية. قياما بوصية جده بالنساء في آخر خطبه عليه الصلاة والسلام – روى الجارود بن المنذر: قال لي أبو عبد الله الصادق: "بلغني أن لك ابنة فتسخطها. ما عليك منها؟ ريحانة تشمها. قد كفيت رزقها. وقد كان رسول الله أبا بنات".

وأي مثل في الإسلام كمثل رسول الله. وأي نعمة أن يكون للمرء ريحانة أو رياحين! وأي فضل كفضل البنات يكفي رزقهن الله! يقول الصادق: "إن إبراهيم سأل ربه ابنة تبكيه وتندبه بعد موته" لينبه على بقاء الوفاء في أفئدة البنات بعد الممات.

ومن الدروس الأولية في هذا المجلس تعليم الناس أن يسعوا لعمارة الدنيا بالعمل للرزق، ومجانبة الخلائق الفاقرة بالتواكل، أو البطالة. وبهذا المبدأ أصبح المجتمع الشيعي مجتمع

العاملين، وبلغ حظه – حيثما كان – من النماء، والاستغناء، والانتفاع بما منحه الله للبشر من مواهب، وأتاح لهم من وسائل.

جاء مجلس الإمام يوما جماعة من الزهاد يريدون منه إظهار التقشف والزهد الكامل. فقال لهم:

حدثني أبي أن رسول الله ﷺ قال: ابدأ بمن تعول. الأدنى فالأدنى.. هذا ما نطق به الكتاب ردا لقولكم.. قال العزيز الحكيم: (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما).

أفلا ترون أن الله تعالى قال غير ما أراكم تدعونني إليه؟.. فنهاهم عن الإسراف ونهاهم عن التقتير. فلا يعطي جميع ما عنده ثم يدعو الله أن يرزقه فلا يستجيب له. للحديث الذي جاء عن النبي: "إن أصنافا من أمتي لا يستجاب دعاؤهم: رجل يدعو على والديه. ورجل يدعو على غريم ذهب له بمال فلم يكتب عليه ولم يشهد عليه. ورجل يدعو على زوجته وقد جعل الله تخلية سبيلها بيده. ورجل يقعد في بيته ويقول: رب ارزقني،ولا يطلب الرزق، فيقول الله عز وجل: يا عبدي ألم أجعل لك السبيل إلى الطلب... ألم أرزقك رزقا واسعا؟ فهلا اقتصدت كما أمرتك ولم تسرف فيه وقد نهيتك عن الإسراف. ورجل يدعوني في قطيعة رحم..." ثم علم الله عز وجل كيف ينفق فقال: (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا) فهذه أحاديث رسول الله يصدقها الكتاب. والكتاب يصدقه أهله من المؤمنين... وفيهم سلمان الفارسي وأبو ذر رضي الله عنهما:

فأما سلمان فكان إذا أخذ عطاء رفع منه قوته حتى يحضر عطاؤه من قابل. فقيل له: يا أبا عبد الله أنت في زهدك تصنع هذا وأنت لا تدري لعلك تموت اليوم أو غدا؟ فكان جوابه أنه قال: ترجون لي البقاء وقد خفتم علي الفناء. أما علمتم أن النفس قد تلتاث على صاحبها ما لم يكن لها من العيش ما تعتمد عليه. فإذا أحرزت معيشتها اطمأنت.

وأما أبو ذر فكانت له نويقات وشويهات يحلبها، ويذبح منها إذا اشتهى اللحم، أو نزل به الضيف.. ومن أزهد من هؤلاء وقد قال فيهما رسول الله ما قال.. ولم يبلغا من الزهد أن صارا لا يملكان شيئا البتة كما تأمرون الناس بإلقاء أمتعتهم وشيئهم.. ويؤثرون على أنفسهم وعيالهم...

فالإمام يريد مجتمعا عاملا، متواصلا، فيه قصد وجد. فبهذا يعين الله من يعين نفسه من عباده.

التلاميذ الأئمة:

كان سفيان الثوري إمام العصر في الورع والسنن والفقه، للعراق كافة. وكانت له في مجابهة الخليفة مواقف لا يمل الحديث فيها. وكان كثيرون من رواد المجلس كسفيان مكانة في المسلمين: منهم عمرو بن عبيد الذي نشأت على يديه فرقة المعتزلة، وأبو حنيفة، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ترب أبي حنيفة، وإمام المدينة مالك بن أنس.

وأبو حنيفة هو الإمام الأعظم لأهل السنة. ومالك أكبر من تلقى عليه الشافعي علما. وأطولهم في تعليمه زمانا. والشافعي شيخ أحمد بن حنبل.

وكمثلهم كان المحدثون العظماء: يحيى بن سعيد محدث المدينة وابن جريج وابن عيينة محدثا مكة. وابن عيينة هو المعلم الأول للشافعي في الحديث.

فلندع للأئمة وصف مكانهم من الإمام – وفيه وصف مجالس علمه:

يقول مالك بن أنس: "كنت أرى جعفر بن محمد. وكان كثير الدعابة والتبسم. فإذا ذكر عنده النبي اخضر واصفر. ولقد اختلفت إليه زمانا فما كنت أراه إلا على الطهارة. ولا يتكلم فيما لا يعنيه. وكان من العلماء والعباد والزهاد الذين يخشون الله. وما رأيته قط إلا ويخرج وسادة من تحته ويجعلها تحتي".

وفي مقولة أخرى يضيف مالك: "وكان كثير الحديث، طيب المجالسة، كثير الفوائد، إذا قال: "قال رسول الله" اخضر مرة واصفر أخرى حتى ينكره من يعرفه. ولقد حججت معه سنة فلما استوت به راحلته عند الإحرام، كلما هم بالتلبية انقطع الصوت في حلقه، وكاد أن يخر عن راحلته. فقلت: يابن رسول الله. أو لا بد لك أن تقول! قال: كيف أجرؤ أن أقول لبيك وأخشى أن يقول الله عز وجل: لا لبيك ولا سعديك"..

وإنا لنذكر ما كان يصنعه جده زين العابدين في هذا المقام.

وأصحب مالك إذا ذكر النبي اصفر لونه. فإذا تساءل جلساؤه قال: لو رأيتم ما رأيت لما أنكرت علي ما ترون. ويذكر لهم حال ابن المنكدر[٤٦] ثم يعقب بحال جعفر.

إنما كان مالك يجد ريح الرسول في مجلس ابن بنته.. ويحس، أو يكاد يلمس، شيئا ماديا، يتسلسل من الجد لحفيده، وأشياء غي رمادية تملك اللب والقلب: فالرؤية متعة والسماع نعمة. والجوار – مجرد الجوار – تأديب وترييب... وفي كل أولئك طرائق قاصدة إلى الجنة.

وصاحب المجلس طره كله. لا يتحدث عن جده إلا على الطهارة يقول: "الوضوء شطر الإيمان" ومن أجل ذلك لم يعد الوضوء عنده أوفي مذهبه، مجرد وسيلة لغيره –٠ أي للصلاة – بل أمسى مستحبا لذاته كالصلاة المستحبة. يتهيأ به المتوضئ لدخول المساجد، وقراءة القرآن، بل الزوجان ليلة زفافهما، والمسافر إلى أهله... والقاضي ليجلس للقضاء، والإمام الذي يفتي أو يعلم.

---

(٤٦) محمد بمن المنكدر (١٣٠) من معادن الصدق بالمدينة وأشياخ مالك، من بني تيم قبيلة أبي بكر،وهم مشهورون بالرقة والورع. وهم أجداد الإمام جعفر – كان لا يسأل ابن المنكدر أحد عن حديث إلا بكى. ومالك يقول: "كنت إذا وجدت من نفسي قسوة آتي ابن المنكدر فأنظر إليه نظرة فأبغض نفسي أياما".

وابن المنكدر يقول: "كابدت نفسي في ذلك أربعين عاما حتى استقامت". وكان من بني المنكدر إخوة ثلاثة فقهاء: محمد وأبو بكر وعمر أبناء المنكدر.

obeikandl.com

وما هو ببدع أن شغف به مالك – وهو الأموي بهواه – فإنما هو حب الرسول وأهل بيته. فحبهم إيمان. وما كان تعبير مالك إلا حبا، وهو – بعد – التلميذ النجيب لفقهاء بني تيم "قبيلة أبي بكر" سواء كانوا من مواليهم – كربيعة الرأي – أو من أنفسهم كمحمد بمن المنكدر، أو أمهم منهم، كالإمام جعفر.

وأبو بكر الصديق يقف في قمة التاريخ العلمي لمصادر مالك باتباعه واجتهاده وأبنائه وبني تيم.

تعلم مالك الكثير من السلوك على الإمام جعفر فكان إذا حدث لا يحدث إلا على الطهارة. ويحمي مجلسه ممن يخرجونه عن قصده. كما يكرم تلامذته. بل صار إماما لليسر الذي تتمثل فيه خصائص المدينة. وأمسى عنوانا على العلم: فإذا خاصم السلطة خاصمها من أجل النزاهة العلمية فحسب. وفي منهجه الاحتفال الكامل بالواقع. وفي طريقته العمل للرزق، حتى لا يحتاج لأحد، مما يعبر عن اقتداء كامل بالإمام الصادق.

وكهيئة الإمام الصادق، لم يجار فقهاء العراق في قولهم أرأيت أرأيت. أي افتراض الفروض واستباق الحوادث وإبداء الرأي فيما لم يحدث حتى سماهم خصومهم "الأرأيتيين".

ومن رضا الإمام عن التلميذ كان "الصادق" يشير بإتيان حلقة مالك. روى عنوان البصري أنه كان يختلف إلى الإمام جعفر يتعلم عليه فغاب الإمام عن المدينة فاختلف إلى مالك سنتين ثم عاد الصادق فعاد عنوان إلى مجلسه. فنصحه أن يجلس إلى مالك.

ولقد يدخل الإمام المسجد – فيقدم إليه تلميذ من تلاميذه ابن أبي ليلى[٤٧] (١٤٨) قاضي الكوفة. فيقول الإمام: أنت ابن أبي ليلى القاضي؟

---

(٤٧) أول من تعلم عليه أبو يوسف صاحب أبي حنيفة هو محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى. وفي الخلاف بينه وبين أبي حنيفة وضع أبو يوسف كتابه الشهير اختلاف أبي حنيفة وابن أبي ليلى. وكثيرا ما رجح فيه آراءه. ومن ذلك أخذه برأيه في قضية رفعت على الخليفة الهادي أمامه. وبهذا دفع الخليفة لصاحب الحق حقه. "راجع أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح للمؤلف ص١٠٧ طبعة دار المعارف".

ويجيب: نعم. فينبهه الإمام على جلال خطر القضاء بقوله: ".. تأخذ مال هذا وتعطيه هذا. وتفرق بين المرء وزوجه لا تخاف في ذلك أحدا... فما تقول إذا جئ بأرض من فضة وسماء من فضة ثم أخذ رسول الله بيدك فأوقفك بين يدي ربك فقال: يا ربي هذا قضى بغير ما قضيت!".

واصفر وجه ابن أبي ليلى مثل الزعفران. لكنه خرج من المسجد مزودا بزاد من خشية الله زوده به ابن رسول الله.

ولما سئل مرة: أكنت تاركا قولا أو قضاء لرأي أحد؟ أجاب: لا. إلا لرجل واحد. هو جعفر بن محمد الصادق.

وابن أبي ليلى قاضي بني أمية وبني العباس. وهم أعداء الإمام.

* * *

في هذا المجلس بالمدينة، أو بالكوفة في إحدى قدمات الإمام جعفر إلى العراق،دخل أئمة الكوفة مجتمعين: أبو حنيفة وابن أبي ليلى وابن شبرمة (١٤٤) على الإمام جعفر. فجعل الصادق ينبه أبا حنيفة مكتشف أداة "القياس"، على خطرها في حضور العالمين الآخرين. وفي مواجهة هذين يقول الإمام الصادق لأبي حنيفة: "اتق الله ولا تقس الدين برأيك".

ولقد يكون أبو حنيفة في حلقته بالكوفة أو في المدينة فيقف عليها الإمام الصادق، ولا تقع عليه عين أبي حنيفة،فإذا لمحته عيناه هب أبو حنيفة واقفا وهو في مجلس الدرس، فقال: "يا ابن رسول الله – لو شعرت بك أول ما وقفت ما رآني الله أقعد وأنت قائم" ليشهد الله على دخيلة نفسه أنها لا تقبل الجلوس والإمام قائم.

وأبو حنيفة (٨٠- ١٥٠) أكبر عمرا من الإمام الصادق.

لكن الصادق يشد أزره بعبارات مشجعة. فيقول له: "اجلس يا أبا حنيفة فعلى هذا أدركت آبائي" يريد بذلك إعظام مجالس العلم. ووقوف الجميع. وجلوس الأستاذ.

انقطع أبو حنيفة إلى مجالس الإمام طوال عامين قضاهما بالمدينة، وفيهما يقول: "لولا العامان لهلك النعمان" – وكان لا يخاطب صاحب المجلس إلا بقوله: "جعلت فداك يا ابن بنت رسول الله".

ولقد يتحدى الإمام الصادق في مجلسه أبا حنيفة ليختبر رأي صاحب الرأي فيسأل: ما تقول في محرم كسر رباعية الظبي. ويجيب أبو حنيفة: يا ابن رسول الله لا أعلم ما فيه. فيقول له الإمام الصادق: أنت تتداهى. أو لا تعلم أن الظبي لا تكون له رباعية!.. ونما سكت أبو حنيفة لأنه لم يعلم كما قال، أو لأنه يمتنع عن أن يصحح للإمام السؤال. وما كان أعظم أدب أبي حنيفة بين نظرائه. فما بالك به بين يدي الإمام.

فإذا جاء ابن شبرمة وحده يسأل عما لم يقع – كدأب تلاميذ أبي حنيفة ومدرسة الكوفة – لم يتردد الإمام في دفعه. بالحسنى:

ذهب إليه ذات يوم يسأله عن القسامة في الدم فأجابه بما صنع النبي. فقال ابن شبرمة: أرأيت لو أن النبي لم يصنع هذا، كيف كان القول فيه؟ فأجابه: أما ما صنع النبي فقد أخبرتك به. وأما ما لم يصنع فلا علم لي به.

والصادق عليم بالاختلاف بين آراء الفقهاء، أي بعلم المدينة وعلم الشام وعلم الكوفة، وهو يروي عشرات الآلاف من الأحاديث، في حين كانت قلة ما سلمه أهل العراق من الحديث آفة علمائه، حتى صوبهم الشافعي في نهاية القرن، بالقوة التي لا نزاع فيها لخبر الواحد، وبوضع قواعد القياس.

والحسن بن زياد اللؤلؤي يعلن رأي صاحبه في إحاطة الإمام الصادق فيقول: "سمعت أبا حنيفة وقد سئل: من أفقه الناس من رأيت؟ فقال: جعفر بن محمد".

ولما استفتى أبو حنيفة في رجل أوصى "للإمام" بإطلاق الوصف، قال: إنها لجعفر بن محمد. فهذا إعلان لتفرده بالإمامة في عصره..

ولم تكن السنتان اللتان حيي بسببهما النعمان بن ثابت "أبو حنيفة" ولم يهلك، إلا تكملة لسنين سابقة كان يتدارس فيها فقه الشيعة. ومن ذلك كان يشد أزر زيد بن علي في خروجه على هشام بن عبد الملك. وقيل مال إلى محمد وإبراهيم "وليد عبد الله بن الحسن" في خروجهما على المنصور. وأن قد جاءته امرأة تقول إن ابنها يريد الخروج مع هذا الرجل – في إبان خروج إبراهيم – وأنا أمنعه. فقال لها: لا تمنعيه.

ويروي أبو الفرج الأصفهاني عن أبي إسحق الفزاري: جئت إلى أبي حنيفة فقلت له: أما اتقيت الله. أفتيت أخي بالخروج مع إبراهيم حتى قتل!! فقال: "قتل أخيك حيث قتل، يعدل قتله لو قتل يوم بدر. وشهادته مع إبراهيم خير له من الحياة".

ولئن كان مجدا لمالك أن يكون أكبر أشياخ الشافعي، أو مجدا للشافعي أن يكون أكبر أساتذة ابن حنبل، أو مجدا للتلميذين أن يتلمذا لشيخيهما هذين، إن التلمذة للإمام الصادق قد سربلت بالمجد فقه المذاهب الأربعة لأهل السنة. أما الإمام الصادق فمجده لا يقبل الزيادة ولا النقصان والإمام مبلغ للناس كافة، علم جده عليه الصلاة والسلام. والإمامة مرتبته. وتلمذة أئمة السنة له تشوف منهم لمقاربة صاحب المرتبة.

لقد يجئ للمناظرة عمرو بن عبيد (١٤٤) زعيم المعتزلة، الذي لم يضحك أبو حنيفة طول حياته بعد أن قال له عمرو إذ ضحك مرة في إبان مناظرته: يا فتى تتكلم في مسألة من مسائل العلم وتضحك؟ والذي يبلغ من وقاره أن يراه الرائي فيحسبه أقبل من دفن والديه. فإذا انتهى الكلام قال عمرو للإمام: "هلك من سلبكم تراثكم ونازعكم في الفضل والعلم".

ويجئ إمام خراسان عبد الله بن المبارك، وهو إمام فقه، وبطل معارك، تلمذ للإمام زمانا ولأبي حنيفة، فتعلم ما جعله يخفي بطولاته في الفتوح "لأن من صنعها لأجله – سبحانه – مطلع عليها" (٤٨). وفي الإمام جعفر شعره الذي ورد فيه:

أنـــت يـــا جعفـــر فـــوق الـــ مـــــدح. والمـــــدح عنـــــاء

إنمـــــــا الأشـــــــراف أرض ولهـــــم أنـــــت ســـــماء

جـــاز حـــد المـــدح مـــن قـــــد ولدتـــــه الأنبيـــــاء

فإذا كان الصادق في مواجهة مع المنصور، حيث القواد والعلماء يجلسون على مبعدة منه، فإن مجلس الإمام عن يمينه. حتى ولو دعاه يخوفه. فلقد طالما انتهت اللقاءات بالموعظة يلقيها الإمام من حديث رسول الله، ولحديث رسول الله شرف المجلس، ولابن رسول الله شرف من رسول الله.

---

(٤٨) استعصى على المسلمين حصن من حصون الروم. فتصدى له فارس ملثم فاقتحمه وتتابع وراءه المسلمون واختفى الفارس في الجند. ولما سئل ابن المبارك فيما بعد، عن إخفاء نفسه، قال: "لأن من صنعت ذلك لأجله – سبحانه – مطلع عليه".

وخرج إلى الحج فمر بامرأة رآها تخرج غرابا ميتا من حيث ألقي به. فسألها فقالت إنها وزوجها لا يجدان ما يطعمانه. فقال لوكيله: كم معك من نفقة الحج؟ قال: ألف دينار. قال: "عد منها عشرين تكفي للعودة إلى مرو " عاصمة خراسان" وأعطها الباقي. فهذا أفضل من حجنا هذا العام". ورجع ولم يحج.

وكان الرشيد بالرقة يوما وأقبل عليها ابن المبارك. فانجفل الناس خلفه ورأته أم ولد الرشيد فقالت: هذا والله الملك. لا ملك هارون الذي يجمع الناس بشرطة وأعوان.

ولما مات ابن المبارك جلس الرشيد فتقبل العزاء فيه.

obeikandl.com

ولو جلس الصادق على مبعدة أو مقربة من الخليفة، لكان الشرف حيث يجلس. وربما قربه الخليفة ليلتمس لنفسه القربى إلى الناس في الدنيا، ويوم لا تملك نفس لنفس شيئا، وعندما تلتمس الشفاعة.

وأبو جعفر المنصور يقر بمكانه من العلم والتقوى مع ضيق صدره بمكانته في الأمة. يقول: "هذا الشجي المعترض في حلقي أعلم أهل زمانه. وإنه ممن يريد الآخرة لا الدنيا".

ومن نص الإقرار ما يدل على أن مجلس "الصادق" للعلم، لم يكن ليسلم من مراقبة أعوان السلطان، وصاحب المجلس شجي معترض في حلقه. وهو قد ينبئ عن أن الفرصة متاحة للإمام ليلقي دروسه، مع الحيطة الواجبة، حتى لا يغص الخليفة بريقه مما ينقل إليه، وإن كان المؤكد أن مجرد وجود الإمام كان فيه الشجى المعترض.

كل العلوم:

والمجلس مورد عذب كثير الزحام – لكل فيه ما يغنيه – فالإمام في مجلسه الرفيع يروي السنة عن آبائه. وما يقوله يجري عند الشيعة مجرى الأصول. فإذا أبدى الرأي في واقعة معينة جعله الشيعة مجعل السنة والتزموها باعتبارها نصا عنه.

أما أهل السنة فيأخذونه مأخذ اجتهاد الأئمة.

واللسان العربي علم العلوم. وإمام المسلمين إمام في البلاغة العربية، عبر عن أسلوبه أبو عمرو بن العلاء حين قال عن أساليب العربية: "العرب تطيل ليسمع منها وتوجز ليحفظ عنها".

وعند الصادق لكل مقام مقال. يسهب ويستطرد كما ستقرأ، بعد، أو يوجز ليحفظ عنه ويتذوق منه، بحروف لها جرس في الأذن ونغم في الفم. كأن يقول: "لا تصل فيما خف أو شف". وكلاهما كاشف.

ويجري على لسانه الشعر الرفيع مثل الذي يرويه عنه سفيان الثوري:

لا اليسر يطرؤنا يوما فيبطرنا ولا لأزمة دهر نظهر الجزعا

إن سرنا الدهر لم نبهج لصحته أو ساءنا الدهر لم نظهر له الهلعا

مثل النجوم على مضمار أولنا إذا تغيب نجم، آخر طلعا

أو مثل قوله جوابا لسفيان إذ يسأل: يا ابن رسول الله لم اعتزلت الناس؟

قال "يا سفيان قد فسد الزمان وتغير الإخوان فرأيت الانفراد أسكن للفؤاد" وأنشد:

ذهب الوفاء ذهاب أمس الذاهب والناس بين مخاتل وموارب

يفشون بينهم المودة والصفا وقلوبهم محشوة بعقارب

ومثل قوله:

فلا تجزع وإن أعسرت يوما فقد أيسرت في زمن طويل

ولا تيئس فإن اليأس كفر لعل الله يغني عن قليل

ولا تظنن بربك ظن سوء فإن الله أولى بالجميل

obeikandl.com

ومثل قوله:

لا تجـزعن مـن المـداد فإنـه عطـــر الرجـــال وحلـــة الآداب

فإذا جاء المناظرون من كل فج عميق، أو التلاميذ الفقهاء، يمثلون أقطار الإسلام، ويجادلون في الأصول أو الفروع، فهو البحر لا تنزفه الدلاء. يروي العقول ويشفي الصدور.

فالديصاني، زعيم فرقة ملحدة، وصاحب الإهليلجة طبيب هندي. وعبد الكريم بن أبي العوجاء[٤٩] عربي ملحد. وعبد الملك مصري يتزندق. وعمرو بن عبيد شيخ المعتزلة. وأبو حنيفة إمام الكوفة، ومالك إمام المدينة، وسفيان الثوري، وغيرهم. كل هؤلاء تملأ مجادلاته معهم الكتب، ولا يضيق صدرا بجدالهم. بل يضرب الأمثال، بمسلكه معهم واتساع صدره لهم، على الحرية الفكرية التي يتيحها الإمام للناس في مجلسه، ليفهموا العلم، أو ليؤمنوا عن فهم، دون إكراه أو إعنات، وعلى سعة الخلاف الفقهي لكل اتجاهات المسلمين. وعلى اليسر والرحمة في الشريعة. فكل هذه أسباب لنشر الإسلام وخلود فقهه.

يقول ابن المقفع – وهو متهم بالمجوسية أو بالزيغ على الأقل – إذ يومي إلى "الصادق" في موضع الطواف "هذا الخلق ما منهم أحد أوجب له بالإنسانية إلا ذلك الشيخ الجالس".

ويذهب ابن أبي العوجاء ليناظره فتعتريه سكتة. فيسأله الإمام: ما يمنعك من الكلام؟ فيقول: "إجلالا لك. ومهابة منك. وما ينطق لساني بين يديك. فإني شاهدت العلماء وناظرت المتكلمين فما تداخلني من هيبة أحد منهم ما تداخلني من هيبتك".

---

(٤٩) عبد الكريم بن أبي العوجاء هو خال معن بن زائدة الشيباني أحد قواد بني مروان الذي صار من كبار الولاة لأبي جعفر. وهو الذي أنقذ أبا جعفر من الموت يوم الراوندية وأيلى – وأهله بنو شيبان أعظم البلاء في الدفاع عن بني العباس. ولما قدم ابن أبي العوجاء للقتل للزندقة سنة ١٦١ قال: "لن يقتلوني. لقد وضعت أربعة آلاف حديث أحللت فيها الحرام وحرمت الحلال" لكن علماء الجرح والتعديل فطنوا إليها جميعا واستبعدوها.

obeikandl.com

رآه الإمام مرة بالحرم فقال له: ما جاء بك؟ قال: عادة الجسد وسنة البلد. ولنبصر ما الناس فيهمن الجنون والحلق ورمي الحجارة. قال الصادق: أنت بعد على عتوك وضلالك يا عبد الكريم؟فذهب يتكلم. فقال الإمام: لا جدال في الحج. ونقض رداءه من يديه وقال: "إن يكن الأمر كما تقول، وليس كما تقول، نجونا ونجوت. وإن يكن الأمر كما نقول، وليس كما تقول، نجونا وهلكت". وأي صبر في حرية الفكر كمثل هذا الصبر من الإمام الصادق؟ وحيث تؤدى المناسك!

وإنما ترك الإمام رجلا ملحدا سيقتل – بعد – في إلحاده سنة ١٦١.

* * *

وإذا لم يأخذ الملحدين بالشدة، فتحا لأبواب الهداية لهم، فهو صارم في صدد المغالين في علي، أو فيه. ليكفهم عن غلوائهم. ومنهم بيان بن سمعان التميمي. كان يعتقد ألوهية علي والحسن والحسين ثم محمد بن الحنفية، ثم ابنه أبي هاشم. بل زعموا أنه قال إنه – بيانا – المارد بقوله تعالى: "هذا بيان للناس". وادعى المغيرة بن سعيد الانتماء إلى الباقر، وصار يؤله عليا ثم جعفر الصادق، ويكفر أبا بكر وعمر ومن لم يوال عليا.

وكذلك كان بشار الشعيري.

يقول جعفر الصادق لمرازم: "تقربوا إلى الله فإنكم فساق كفار مشركون". ويقول له: "إذا قدمت الكوفة فأت بشار الشعيري وقل له: يا كافر يا فاسق أنا برئ منك".

دخل عليه بشار يوما فصاح به: "اخرج عني لعنك الله. والله لا يظلني وإياك سقف أبدا" فلما خرج قال: "ويحه. ما صغر الله أحد تصغير هذا الفاجر. والله إني عبد الله وابن أمته".

ويقول عن المغيرة بن سعيد: "لعن الله المغيرة بن سعيد. لعن الله يهودية كان يختلف إليها يتعلم منها الشعر والشعبذة والمخاريق. فوالله ما نحن إلا عبيد، خلقنا الله واصطفانا، ما نقدر على ضرر ولا نفع إلا بقدرته.. ولعن الله من قال فينا ما لا نقول في أنفسنا".

obeikandl.com

ويقول: "من قال إننا أنبياء فعليه لعنة الله ومن شك في ذلك فعليه لعنة الله".

وينبه الأذهان على دسائس خصوم الشيعة بالاختلاق عليهم فيقول: "أنا أهل بيت صادقون لا نعدم من يكذب علينا عند الناس. يريد أن يسقط صدقنا بكذبه علينا".

ويقول لخيثمة: "أبلغ شيعتنا أنا لا نغني من الله شيئا. وأنه لا ينال ما عند الله إلا بالعمل. وأن أعظم الناس يوم القيامة حسرة من وصف عدلا ثم خالفه إلى غيره..".

وهي مقولات لا تترك مجالا لدعاوى المغالين في جعفر الصادق وآبائه وبنيه من الأئمة. وتنفي عنه ما ادعوه من علم الغيب.فلا يعلم الغيب إلا الله. كما تجعل الأئمة مجعل البشر، وهي آراء أبيه وجده.

سأل سائل جده زين العابدين: متى يبعث عليا؟ فأجاب: "يبعث – والله – يوم القيامة. وتهمه نفسه" أي أنه يحاسب يوم الحساب كما يحاسب غيره.

وأما تعبير الأحلام فالصادق يرى أنها "لو كانت كلها تصدق كان الناس كلهم أنبياء، ولو كانت كلها تكذب لم يكن فيها منفعة، بل كانت فضلا لا معنى لها. فكانت تصدق أحيانا لينتفع بها الناس في مصلحة يهتدى لها، أو مضرة يحذر منها. وتكذب كثيرا لئلا يعتمد عليها كل الاعتماد.

obeikandl.com

فرؤى الأنبياء حقائق من هدي النبوة. أما رؤى الآخرين فأصداء أفكار تتحرك في باطنهم.منها ما يصدقه الواقع ومنها ما يكذبه.

* * *

روى هشام بن الحكم: كان بمصر زنديق يبلغه عن أبي عبد الله "الإمام الصادق" أشياء فخرج إلى المدينة ليناظره فلم يصادفه وقيل له إنه خارج بمكة. فخرج إلى مكة، ونحن مع أبي عبد الله، فصادفنا في الطواف. وكان اسمه عبد الملك. وكنيته أبو عبد الله.فضرب كتفه كتف أبي عبد الله..فقال له أبو عبد الله.. فمن هذا الملك الذي أنت عبده. من ملوك الأرض أو من ملوك السماء؟ وأخبرني عن ابنك عبد إلاه السماء أم عبد إلاه الأرض. قل ما شئت تخصم.. إذا فرغت من الطواف فائتنا.

فلما فرغ أتاه الزنديق فقعد بين يديه.. قال أبو عبد الله: "أيها الرجل: ليس لمن لا يعلم حجة على من يعلم. ولا حجة للجاهل.. يا أخا مصر إن الذين يذهبون إليه ويظنون أنه الدهر، إن كان الدهر يذهب بهم لم لا يردهم؟ وإن كان يردهم لم لا يذهب بهم؟- يا أخا مصر لم السماء مرفوعة والأرض موضوعة؟ لم لا تنحدر السماء على الأرض؟ لم لا تنحدر الأرض فوق طبقاتها، ولا يتماسكان ولا يتماسك من عليها؟".

قال الزنديق أمسكهما الله ربهما وسيدهما.. فآمن الزنديق..

فقال: اجعلني من تلامذتك.. فقال: يا هشام بن الحكم. خذه إليك. فعلمه هشام. فسار يعلم أهل الشام وأهل مصر الإيمان.

ويروي هشام: "أن زعيم الديصانية وفد على مجلس الإمام فقال له: دلني على معبودي ولا تسألني عن اسمي. فإذا غلام له صغير في كفه بيضة يلعب بها.. فقال: يا ديصاني. هذا حصن مكنون له جلد غليظ. وتحت الجلد الغليظ جلد رقيق. وتحت الجلد الرقيق ذهبة مائعة وفضة ذائبة.. فلا الذهبة المائعة تختلط بالفضة الذائبة. ولا الفضة الذائبة تختلط بالذهبة المائعة

فهي على حالها. لم يخرج بها مصلح فيخبر عن صلاحها. ولا دخل فيها مفسد فيخبر عن فسادها. ولا يدري أللذكر خلقت أم للأنثى. تنفلق عن مثل ألوان الطواويس. أو لا ترى لها مدبرا؟

فأطرق الديصاني ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأن محمدا عبده ورسوله. وأنك إمام وحجة من الله على خلقه. وأنا تائب مما كنت فيه".

* * *

قصد إليه في مجلسه ذات يوم نفر من المعتزلة يطلبون إليه بيعة" محمد بن عبد الله" النفس الزكية. فطلب إليهم أن يختاروا واحدا منهم ليناظره. فاختاروا زعيم المعتزلة عمرو بن عبيد. وظاهر أن تاريخ ذلك المجلس كان معاصرا لرفض الإمام الصادق أن يبايع يوم الأبواء قبل قيام الدولة العباسية سنة ١٣٣. فلقد كان عمرو بن عبيد من أنصارها. له صلة خاصة بالمنصور. واشتهر عنه أنه لم يبايع محمدا وقال إنه لم يختبر عدله، وربما كان ذلك المجلس في إثر مقتل الوليد بن يزيد سنة ١٢٦، أو فترة الحروب الأخيرة لبني مروان التي قامت على أثرها الدولة العباسية.

قال عمرو: قتل أهل الشام خليفتهم وضرب الله بعضهم بقلوب بعض وشتت أمرهم، فنظرنا فوجدنا رجلا له دين وعقل ومروءة وهو محمد بن عبد الله بن الحسن. فأردنا أن نجتمع معه فنبايعه.. وقد أحببنا أن نعرض ذلك عليك. فإنه لا غناء لنا عنك لفضلك.

قال الصادق: إنا نسخط إذا عصى الله. فإذا أطيع الله رضينا. أخبرني يا عمرو: لو أن الأمة قلدتك أمرها فملكته بغير قتال ولا مئونة فقيل لك ولها من شئت. من كنت تولي؟

قال عمرو: كنت أجعلها شورى بين المسلمين.

قال الصادق: بين كلهم؟ قال نعم. قال قريش وغيرهم؟ قال عمرو: العرب والعجم.

قال الصادق: يا عمرو. أتتولى أبا بكر وعمر أو تتبرأ منهما؟ قال: أتولاهما.

قال الصادق: يا عمرو إن كنت رجلا تتبرأ منهما فإنه يجوز الخلاف عليهما. وإن كنت تتولاهما فقد خالفتهما – فقد عمد عمر إلى أبي بكر فبايعه ولم يشاور أحدا. ثم ردها أبو بكر عليه ولم يشاور أحدا. ثم جعلها عمر شورى بين ستة فأخرج منها الأنصار. ثم أوصى الناس بشئ. وما أراك ترضى به أنت ولا أصحابك.

قال عمرو: وما صنع؟

قال الصادق: أمر صهيبا أن يصلي بالناس ثلاثة أيام. وأن يتشاور أولئك الستة ليس فيهم أحد سواهم إلا ابن عمر يشاورونه وليس له من الأمر شئ. وأوصى من بحضرته من المهاجرين والأنصار إن مضت الثلاثة ولم يفرغوا ولم يبايعوا أن يضرب أعناق الستة.وإن اجتمع أربعة قبل أن يمضي ثلاثة أيام وخالف اثنان أن يضرب أعناق الاثنين. أفترضون بهذا فيما تجعلون من الشورى في المسلمين؟

قال: لا.

قال الصادق: أرأيت لو بايعت صاحبك الذي تدعو إليه ثم اجتمعت لكم الأمة ولم يختلف منهم رجلان. أفمضيتم إلى المشركين.

قال: نعم.

قال الصادق: فتفعلون ماذا؟

قال عمرو: ندعوهم إلى الإسلام فإن أبوا دعوناهم إلى الجزية.

قال الصادق: فإن كانوا مجوسا وعبدة النار والبهائم وليسوا أهل الكتاب؟

قال عمرو: سواء..

وبعد محاورة في شأن الجزية والصدقات أقبل على عمرو والناس وقال: اتق الله يا عمرو. وأنتم أيها الرهط فاتقوا الله. فإن أبي حدثني وكان خير أهل الأرض وأعلم بكتاب الله وسنة رسول الله أن رسول الله قال: "ومن ضرب بسيفه ودعاهم إلى نفسه وفي المسلمين من هو أعلم منه فهو ضال متكلف".

مع القرآن:

كان جده علي يقول: "سلوني عن كتاب الله. فوالله ما من آية إلا أنا أعلم بليل نزلت أم بنهار، في سهل نزلت أم في جبل" فلقد كان دائما إلى جوار الرسول. وهو باب مدينة العلم. والإمام جعفر يصدر من المنبع ذاته. يقول مثل جده علي "كان أصحاب محمد يقرأ أحدهم القرآن في شهر أو أقل. إن القرآن لا يقرأ هذرمة ولكن يرتل ترتيلا. وإذا مررت بآية فيها ذكر الجنة فقف عندها وأسأل الله تعالى. وإذا مررت بآية فيها ذكر النار فقف عندها وتعوذ بالله من النار".

للقرآن عنده المقام الأول. يسأل عمن يؤم القوم فيجيب "أن النبي ﷺ قال: يتقدم القوم أقرؤهم للقرآن. فإن كانوا في القراءة سواء فأقدمهم هجرة. فإن كانوا في الهجرة سواء فأكبرهم سنا. وإن كانوا في السن سواء فأعلمهم بالسنة، وأفقههم في الدين. ولا يتقدمن أحد الرجل في منزله. وصاحب السلطان في سلطانه".

ونصوص القرآن حاضرة كلما أراد أن يدلي بحجة. وهو في قمة البلاغة العربية تسعفه اللغة. لا يلجأ إلى التأويل بديلا من التفسير. فهو في فهم النصوص أنفذ بصيرة. لم يعلم له تفسير نوقض فيه. والتفسير بتخريج مجازات القرآن لا يقدر عليه إلا البلغاء(٥٠).

---

(٥٠) في القرآن مجاز كثير مثل عرض الأمانة على السموات والأرض، يفسرها بعض العلماء أنها الطاعة. ومثل يد الله فوق أيديهم يفسرها البعض بأنها القدرة – وهؤلاء المخرجون يبدءون من أن (الله ليس كمثله شئ) والآخذون بالتأويل يبدءون من ذلك المبدأ ثم يؤولون الآيات المتشابهة على أساس الآيات المحكمة. كقوله تعالى: (إلى ربها ناظرة) يفسرونها على أساس قوله: (لا تدركه الأبصار) فيكون المقصود الرضى عنها.

obeikandl.com

ومن القرآن ينبثق فقه الإمام في كل باب:

– يسأل سائل عن قوله تعالى: (من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا. ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا). فيجيب: من أخرجها من هدى إلى ضلال فقد – والله – قتلها.

– ويجيئه زنديق يسأله عن تفسير قوله تعالى: (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع. فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) وقوله تعالى في آخر السورة: (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل) فيفحم الإمام الزنديق فيقول: "أما قوله فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة فإنما عنى النفقة. وأما قوله ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فإنما عنى المودة. فإنه لا يقدر أحد أن يعدل بين امرأتين في المودة".

– ويقول عن الرزق الذي يحض الله على الإنفاق منه: (ومما رزقناهم ينفقون)فيفسرها "ومما علمناهم يبثون" فالعلم رزق. وإذاعته إنفاق واجب.

– ومن تعبيره عن حجية القرآن أبدا يسأله السائل: لم صار الشعر والخطب يمل ما أعيد منهما والقرآن لا يمل؟ فيجيب: "لأن القرآن حجة على أهل العصر الثاني كما هو حجة على أهل العصر الأول. فكل طائفة تراه عصرا جديدا. ولأن كل امرئ في نفسه، متى أعاده وفكر فيه، تلقى منه في كل مدة علوما غضة. وليس هذا كله في الشعر والخطب"[٥١].

وللمؤولين تفاسير كثيرة ألقى كثير منها في غياهب الإهمال وبخاصة تفاسير المعتزلة، بقى منها الكشاف للزمخشري الفقيه الحنفي، وللبلاغة العربية فيه أعظم مكان.

(٥١) يروي الشاطبي – في كتابه الاعتصام – ما يوضح حاجة العصور كافة لهدى القرآن: رووا للأوزاعي (١٥٧) قول أحد الصحابة بعد موت رسول الله ﷺ بزمان: "لو خرج رسول الله ﷺ ما عرف شيئا مما كان عليه هو وأصحابه إلا الصلاة" فقال الأوزاعي: فكيف لو كان اليوم؟.. كان ذلك في منتصف القرن الثاني للهجرة وفيه تابعو التابعين – فكيف الأمر فيما تلاه من قرون وقرون.

– ويقول المفضل: قلت: أخبرني عن قول الله عز وجل: (وجعلها باقية في عقبه) قال: "يعني بذلك الإمامة" جعلها في عقب الحسين إلى يوم القيامة. فقلت: فكيف صارت الإمامة في ولد الحسين دون ولد الحسن وهما جميعا ولدا رسول الله ﷺ وسبطاه وسيدا شباب أهل الجنة؟ فقال: إن موسى وهارون كانا نبيين مرسلين أخوين فجعل الله النبوة في صلب هارون دون صلب موسى. ولم يكن لأحد أن يقول لم فعل الله ذلك. فإن الإمامة خلافة الله عز وجل جعلها في صلب الحسين دون صلب الحسن لأن الله هو الحكيم في أفعاله. لا يسأل عن فعله وهم يسألون.

– ويعلن الإمام رأيه بوجوب الإمامة. فيسأله السائل عن منزلة الأئمة. ومن يشبهون؟ فيقول: كصاحب موسى وذي القرنين. كانا عالمين. ولم يكونا نبيين(٥٢).

– وفي قوله تعالى: (يمحو الله ما يشاء ويثبت) يقول الإمام: "وهل يمحو الله إلا ما كان ثابتا. وهل يثبت الله إلا ما لم يكن" ويقول: "لو علم الناس ما في القول بالبداء من الأجر ما فتروا عن الكلام فيه" وإنما يقصد استجابة الله لدعاء العباد. وفي ذلك قوله: "ما عظم الله بشئ مثل البداء".

– ويسأله عمرو بن عبيد عن الكبائر "من كتاب الله". فسردها، ويضع في جوار كل كبيرة النص عليها من الكتاب العزيز فهي:

---

(٥٢) يحدد الصادق الإمامة بتشبيه قرآني يفسر وجوبها، إذ يسأل عن حديث الرسول "من مات وليس له إمام فميتته ميتة جاهلية" هل هي ميتة كفر؟ فيجيب "ميتة ضلال" – وكذلك يحدد جده زين العابدين معنى العصمة بحد قرآني إذ يسأل عن معنى المعصوم فيقول: هو من اعتصم بحبل الله المتين أي القرآن. فلا يفترق الإمام عن القرآن إلى يوم القيامة فالإمام يهدي الناس إلى القرآن والقرآن يهدي الناس إلى الإمام بقوله تعالى: (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم..).

ويلاحظ أن الذي فتق الكلام في الإمامة وفصل وأصل فيها هم تلاميذ الإمام. وربما بدأ الكلام فيها في عهده كما يقول المستشرق رونالدسن. أما التعريفات الوافية فتنسب إلى الإمام الرضا (٢٠٢) حفيد الإمام الصادق. يقول الإمام الرضا: "الإمامة منزلة الأنبياء. ووراثة الأوصياء. الإمامة خلافة الله وخلافة الرسول. والإمامة زمام الدين ونظام المسلمين وصلاح الدنيا وعز المؤمنين" والماوردي من فقهاء أهل السنة يحدد غرضها فيقول: "الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا".

الشرك: (إن الله لا يغفر أن يشرك به).

اليأس من روح الله: (لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون).

عقوق الوالدين: (وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا).

قتل النفس: (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها).

قذف المحصنات: (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة).

أكل مال اليتيم: (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا).

أكل الربا: (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس).

الفرار من الزحف: (ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير).

السحر: (ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق).

الزنا: (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا).

اليمين الغموس: (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم).

الغلول: (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة).

obeikandl.com

منـع الزكـاة: (والـذين يكنـزون الـذهب والفضـة ولا ينفقونهـا فـي سـبيل الله فبشـرهم بعـذاب أليم).

كتمان الشهادة: (ومن يكتمها فإنه آثم قلبه).

شهادة الزور: (والذين لا يشهدون الزور).

نقض العهد وقطيعة الرحم: (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون).

كفران العمة: (ولئن كفرتم إن عذابي لشديد).

بخس الكيل: (ويل للمطففين).

وتـرك الصـلاة: (....) واللـواط: (....) وقـول الـزور: (....) وشـرب الخمـر: (....) والبدعة: (....).

– ومن علم الإمام جعفر بالقرآن أخذ القراءات عليه حمزة بن حبيب التيمي. وفيها مد وإطالة وسكت على الساكن قبل الهمز.

* * *

– وفي صفات الله يقول الإمام لعبد الملك بن أعين: "تعالى الله الذي ليس كمثله شئ وهو السميع البصير. تعالى عما يصفه الواصفون المشبهون لله بخلقه.. إن المذهب الصحيح في التوحيد ما نزل به القرآن من صفات الله عز وجل فانف عن الله تعالى البطلان والتشبيه فلا نفي ولا تشبيه.. هو الله الثابت الموجود".

ويقول لمن سأله هل رأى رسول الله ربه: "نعم لقد رآه بقلبه – أما ربنا جل جلاله فلا تدركه أبصار الناظرين ولا تحيط به أسماع السامعين".

وسأله الأعمش – شيخ المحدثين – عن مكان الله فقال: "لو كان في مكان لكان محدثا". ولما سئل عن استوائه على العرش قال: "إنه يعني أنه لا شئ أقرب إليه من شئ".

سئل عن قوله تعالى: (وسع كرسيه السموات والأرض) فقال: "العرش في وجه هو جملة الخلق والكرسي وعاؤه. وفي وجه آخر هو العلم الذي أطلع الله عليه أنبياءه ورسله وحججه والكرسي هو العلم الذي لم يطلع عليه أحدا من أنبيائه ورسله وحججه".

وسئل عن قوله تعالى: (وكان عرشه على الماء) وقول البعض إن العرش كان على الماء والرب فوقه؟ فأجاب: "كذبوا من زعم هذا فقد صير الله محمولا، ووصفه بصفة المخلوق ولزمه أن الشئ الذي يحمله أقوى منه".

وواضح من ذلك نهي الإمام عن التجسيد والتشبيه وتصحيحه أفهام تلاميذه كيوم جاءه يونس بن ظبيان يقول: إن هشام بن الحكم يقول قولا عظيما.. يزعم أن الله تعالى جسم! قال الإمام: "ويله أما علم أن الجسم محدود متناه. فإذا احتمل الحد احتمل الزيادة والنقصان. فإذا احتمل الزيادة والنقصان كان مخلوقا!".

– وواضح منحى الإمام في الاحتجاج بنظام الكون، ونظام الجسم الإنساني،وبالعقل، وهو درس من جده علي يلفت النظر إلى بديع صنع المبدع جل جلاله. وفي ذلك قول علي:

أتحســب أنــك جــرم صــغير وفيــك انطــوى العــالم الأكبــر؟

يجئ الإمام رجل من أهل مصر أوصى أخوه للكعبة بجارية مغنية فارهة كانت له فقيل له: ادفعها إلى بني شيبة "وفيهم سدانة الكعبة". واختلف الناس في أداء الوصية. وأخيرا أشاروا عليه أن يأتي الإمام. قال الإمام: "إن الكعبة لا تأكل ولا تشرب وما أهدى إليها فهو لزوارها. فبع الجارية وناد: هل من محتاج؟ فإذا أتوك فسل عنهم وأعطهم".

– ويسأل عن القضاء والقدر فيجيب: "هو أمر بين أمرين: لا جبر ولا تفويض"(٥٣) ويحسم القضية بين الجبرية والقدرية فيقول: "ما من قبض ولا بسط إلا لله فيه مشيئة ورضاء وابتلاء".

يأل عن الجبر والتفويض: جعلت فداك. أجبر الله العباد على المعاصي؟ فيجيب: الله أعدل من أن يجبرهم على المعاصي ثم يعذبهم عليها. فيقول السائل: جعلت فداك ففوض إليهم؟ فيجيبه لو فوض إليهم لم يحصرهم بالأمر والنهي. فيقول السائل: جعلت فداك فبينهما منزلة؟ فيجيب: "نعم. ما بين السماء والأرض".

---

(٥٣) الجبر أن الإنسان مجبر على أعماله. والتفويض أن الإنسان مخير فيها. وهما نظريتان لمفكرين كانوا أحياء في بدايات حياة الإمام – قال بالجبر الجعد بن درهم متأثرا بقول بيان بن سمعان. وقال بالتفويض غيلان الدمشقي ومعبد الجهني – وقد قتل الأربعة. الأولان قتلهما خالد بن عبد الله القسري والي بني أمية. والأخيران قتل الأول منهما هشام بن عبد الملك. أما معبد فقتله الحجاج لخروجه عليه في فتنة ابن الأشعث. وتابع جهم بن صفوان الجعد. وقد قتله سالم بن أحوز المازني بمرو في أواخر أيام بني أمية.

وفي حياة الإمام الصادق ازدهرت نظرية الإرجاء إلى الله، حتى يكون يوم الحساب، فيحاسب الناس على عملهم مع وجوب قيامهم بالعمل الصالح. قال بها سعيد بن جبير وحماد بن أبي سليمان شيخ أبي حنيفة. ومقاتل بن سليمان – وهو من السابقين الأولين في التفسير – وهؤلاء مرجئة السنة. أما مرجئة البدعة فيرجئون الحساب ولا يوجبون العمل الصالح.

والأولون يقولون: إن الله يعاقب مرتكب الكبيرة لكنه قد يغفرها ولا يكفره الناس في الحياة الدنيا لذلك الأمل.

obeikandl.com

وفي مجلس آخر يسأله السائل: وما أمر بين أمرين؟ فيجيب: "مثل ذلك رجل رأيته على معصية فنهيته فلم ينته. فتركته. ففعل تلك المعصية. فليس، حيث لم يقبل منك فتركته، كنت أنت الذي أمرته بالمعصية".

ويقول لسائل آخر: "قال رسول الله ﷺ من زعم أن الله يأمر بالسوء والفحشاء فقد كذب على الله. ومن زعم أن الخير والشر بغير مشيئة الله فقد أخرج الله من سلطانه. ومن زعم أن المعاصي بغير قوة الله فقد كذب على الله. ومن كذب على الله أدخله النار".

ويقول: "إن الله أراد منا شيئا. وأراد بنا شيئا. وما أراده منا أظهره لنا. فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا".

مع أهل الكوفة وأبي حنيفة:

ولقد يقول له قائل: إن لي جارا يزعم أنك تبرأ من أبي بكر وعمر! فيجيب: برئ الله من جارك. والله إني لأرجو أن ينفعني الله بقرابتي من أبي بكر.

أو يسأله السؤال ذاته سالم بن أبي حفصة فيجيب بما أجاب أبوه الباقر: "يا سالم تولهما وابرأ من عدوهما. فإنهما كانا إمامي هدى رضي الله عنهما".

يقول سالم: قال لي جعفر: "أيسب الرجل جده؟ أبو بكر جدي. لا نالتني شفاعة محمد يوم القيامة إن لم أكن أتولاهما وأبرأ من عدوهما".

ولقد كان لجده زين العابدين ابن أسماه عمر. وكان زين العابدين يترحم على أبي بكر وعمر وعثمان.

obeikandi.com

ويقول أبو حنيفة: "استأذنت عليه فحجبني. وجاء قوم من أهل الكوفة استأذنوا لهم فدخلت معهم. فلما صرت عنده قلت:

يا ابن رسول الله لو أرسلت إلى أهل الكوفة فنهيتهم أن يشتموا أصحاب رسول الله ﷺ فإني تركت فيها أكثر من عشرة آلاف يشتمونهم!

فقال: لا يقبلون مني.

فقلت:ومن لا يقبل منك وأنت ابن رسول الله؟

فقال الصادق: أنت أول من لا يقبل مني. دخلت بغير إذني. وجلست بغير أمري. وتكلمت بغير رأيي. وقد بلغني أنك تقول بالقياس.

فقلت: نعم أقول به.

فقال: ويحك يا نعمان أول من قاس إبليس حين أمر بالسجود لآدم فأبى وقال: خلقتني من نار وخلقته من طين. أيهما أكبر يا نعمان القتل أم الزنا؟ قلت: القتل.

قال: فلم جعل الله في القتل شاهدين وفي الزنا أربعة؟ أيقاس لك هذا؟ قلت: لا. قال: فأيهما أكبر البول أو المني. قلت البول.

قال: فلماذا أمر في البول بالوضوء وأمر في المني بالغسل. أيقاس لك هذا؟

قلت: لا. قال أيهما أكبر الصلاة أم الصوم؟

قلت: الصلاة. قال: فلم وجب على الحائض أن تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ أيقاس ذلك؟ قلت: لا.

قال: فأيهما أضعف المرأة أم الرجل قلت: المرأة.

قال: فلم جعل الله للرجل سهمين في الميراث وللمرأة سهما؟ أيقاس ذلك؟

قلت: لا.

قال: وقد بلغني أنك تقرأ آية من كتاب الله: (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم): أنه الطعام الطيب والماء البارد في اليوم الصائف.

قلت: نعم.

قال: لو دعاك رجل وأطعمك وسقاك ماء باردا، ثم امتن عليك. ما كنت تنسبه إليه؟ قلت: البخل. قال: أفبخل علينا؟ قلت: فما هو:

قال: حبنا أهل البيت"[٥٤].

---

(٥٤) يلاحظ أن مدرسة المحدثين ضائقة الصدر بالقياس. ومدرسة المدينة، وعلى رأسها مالك،تقدح في أهل العراق لكثرة إبداء الآراء باستعمال القياس.

ولئن كان لنا أن نلاحظ تأثر أبي حنيفة الكامل بمنهج الإمام الصادق في الاعتبار بالآيات الدالة على الحقائق "أبو حنيفة – بطل الحرية والتسامح في الإسلام للمؤلف صفحة ٧٨ طبعة دار المعارف" أو تأثر مالك بمنهج الإمام الصادق في عدم المجازفة بالرأي "مالك بن أنس للمؤلف صفحة ٧٦ وما بعدها طبعة دار المعارف" إننا نقطع كذلك بأثره في النهي عن القياس. فلقد نفع النهي القياسيين أنفسهم فضبطوا القياس وتحروا كل الدقة فيه ليتفادوا المجازفة ثم جاء الشافعي فأصله وقعده. وهو القائل: "والاجتهاد القياس".

obeikandl.com

والمسلمون يرفعون أبا حنيفة إلى مكانته العليا بين كبار المجادلين من أهل الإسلام، ولا يجدونه ساكتا في يوم من الأيام، كهيئة ما كان في ذلك المقام.

يقول الفخر الرازي: "العجيب أن أبا حنيفة كان تعويله على القياس وخصومه يذمونه بسبب كثرة القياسات. ولم ينقل عنه ولا عن أحد من أصحابه أنه صنف في إثبات القياس ورقة. ولا أنه ذكر في تقريره شبهة.فضلا عن حجة. ولا أنه أجاب عن دلائل خصومة في إنكار القياس بل أول من قال في هذه المسألة وأورد فيها الدلائل هو الشافعي". فأبو حنيفة استعمل القياس والشافعي استعمله وأصله وقعد القواعد للعاملين به.

ولقد أفاد الشيعة كثرة ما آل إليهم من السنة ونصوص الحديث فلم يلجئوا للقياس، كما كانت قواعدهم الأخرى كافية لبلوغ غرضهم. ومن أسباب الإقبال على القياس في العراق قلة ما سلموه من نصوص السنة. وإما اتسع فقه أحمد بن حنبل بكثرة السنن التي جمعها واعتمد أصحابه عليها – مع تعويله على أصل الصحابة فزاد مصادر الفقه أصلا بتمامه.

والقياس الذي يلجأ إليه المجتهدون من أهل السنة. هو إلحاق أمر لم يرد في حكمه نص أو إجماع بأمر ورد في حكمه نص أو إجماع لاشتراكهما في المعنى الذي شرع هذا الحكم من أجله فثمة أركان أربعة:

الأصل وهو النص والفرع وهو الأمر الذي لم يرد في حكمه نص.

والمعنى: الذي من أجله شرع الحكم. والمطلوب وهو الحكم.

وهم يضعون للقياس شروطا:

١– أن يكون حكم الأصل ثابتا بنص في الكتاب أو السنة أو الإجماع.

٢– أن يكون لحكم الأصل علة يدركها العقل. فمن الأحكام ما هو تنفيذي لا يجوز القياس فيه. كتحديد عدد الركعات. ومقدار الأنصباء في الأموال التي تجب فيها الزكاة. وتحديد عدد الطواف حول الكعبة. فهذه مقدرات لا يقاس عليها لأن العقل لا يدرك علية مقاديرها.

وجميع الأحكام إلا قليلا منها، كالتي سبق، يمكن العقل إدراك المعاني التي شرعت الأحكام لأجلها.

٣– أن يتساوى الفرع والأصل في المعنى الذي شرع حكم الأصل من أجله. وإلا كان القياس فيه مع الفارق. وأن يكون المعنى ظاهرا، لأنه معرف للحكم الخفي والخفي لا يعرف الخفي.

٤– أن لا يكون في الفرع نص أو إجماع يدل على حكم يخالف القياس.

٥– أن لا يكون حكم الأصل خصوصية من الخصوصيات كاختصاص الرسول بزواج من زدن على الأربع. واختصاص خزيمة بأن تعدل شهادته رجلين وأن لا تكون العلة قاصرة على الأصل لا يمكن تعدية حكمها إلى الفرع.

وبالقياس أمكن أهل السنة البناء على النصوص واستعمال العلل في تحقيق مقاصد الشارع.

obeikandl.com

فأما تفسير القرآن بما ينفي البخل عن المعطي جل شأنه فحجة الصادق فيه لا راد لها. وأما حجاجه بعدم طاعة أهل الكوفة فظاهر لأبي حنيفة، إمام الكوفة في الفقه والأدب الديني والاجتماعي، الذي دخل وجلس وتكلم، دون أن يطيع، ثلاث مرات.

أما أسئلته عن القياس فقد وضعت القياس موضع التهمة. ولم يجر أبو حنيفة جوابا، وهو المقتدر. ولو سأل الصادق أبا حنيفة عن حكمة كل حكم لأجاب وأضاف: أن كل ذلك ليس يمنع القياس عنده. وربما كان أبو حنيفة يومذاك كهيئته يوم سكت عن الرد بأن الظبي لا تكون له رباعية. مخافة أن يظن به ظان أنه يريد ردا على الإمام، في حين أنه قد جاء إلى مجلسه ليتعلم. أو إجلالا منه لمقام الإمام وهو بين يديه. فذلك أدب الأئمة الذي جعل الشافعي وهو يصلي عند قبر أبي حنيفة لا يرفع يديه ويقول: "أدبا مع هذا الإمام أن أظهر خلافه بحضرته".

طعم أبو حنيفة يوما مع الإمام الصادق – فرفع الإمام يده حمدا لله ثم قال: اللهم هذا منك ومن رسولك. قال أبو حنيفة: يا أبا عبد الله أجعلت مع الله شريكا؟ قال الإمام إن الله يقول في كتابه: (وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) فقال أبو حنيفة: "لكأني ما قرأتها قط في كتاب ولا سمعتها إلا في هذا الموقف".

* * *

ولقد يدخل عليه سفيان الثوري وفيه قول القائل: "ما رأيت الغني أذل منه في مجلس الثوري ولا الفقير أعز منه في مجلس الثوري". والذين يجلون ورع الإمام أحمد بن حنبل يشبهونه فيه بسفيان الثوري. وسفيان الثوري يسمى "أمير المؤمنين في الحديث". وحسبه أن يكون من تلاميذه في الحديث ابن جريج إمام مكة والأوزاعي إمام الشام ومالك بن أنس إمام المدينة، وابن اسحق إمام المحدثين في السيرة. وهو فوق كل ذلك إمام عامل. رمى كتاب المهدي له في دجلة – وفيه توليته للقضاء – وهرب من السلطان فولى شريكا بدله.

وكان سفيان كثير المغاضبة للخلفاء – ولهذا كثر ما كان الخليفة يطلب دمه، وكان يختفي عن عيونه.

يستأذن سفيان على الإمام فلا يرفض الإذن بل يدخله ليعلن له أن ظهوره في المجلس العلمي، وهو مختف، أمر غير سائغ. صيانة للمجلس العلمي من أن يكون مجلس المطلوبين، وحماية للمطلوب ذاته. وحفظا لعلاقة الإمام بالخليفة. ومع ذلك لا يضن الإمام عليه بالحكمة.

يقول ابن أبي حازم: "كنت عند جعفر الصادق يوما وإذا بسفيان الثوري بالباب فقال: إيذن لي. فدخل. فقال له جعفر: إنك رجل يطلبك السلطان في بعض الأحيان. ونحضر عنده وأنا أتقي السلطان. فاخرج عني غير مطرود.

قال سفيان: "حدثني حديثا أسمعه وأقوم".

قال الإمام: حدثني أبي عن جدي عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال: "من أنعم الله عليه نعمة فليحمد الله. ومن استبطأ الرزق فليستغفر الله، ومن حزنه أمر فليقل: لا حول ولا قوة إلا بالله".

طلب إليه سفيان يوما أن يعظه. فقال: "يا سفيان لا مروءة لكذوب ولا أخل لملول. ولا راحة لحسود. ولا سؤدد لسئ الخلق". فقال سفيان: زدني. قال: "يا سفيان ثق بالله تكن مؤمنا. وارض بما قسم الله تكن غنيا. وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما. ولا تصحب الفاجر يعلمك فجوره. وشاور في أمرك الذين يخشون الله عز وجل". فاستزاده سفيان فقال: "من أراد عزا بغير عشيرة، وغنى بغير مال، فلينتقل من ذل معصية الله إلى عز طاعته".

فإذا أوصى زرارة عندما ولي القضاء، ذكره حساب السماء، قال: "إنه إذا كان يوم القيامة وجمع الله الخلائق سألهم عما عهد إليهم ولم يسألهم عما قضى عليهم" فالقضاء أمانة الله. وإذا كان القاضي يجري عليه قضاء الله فهو مسئول عما يجري به قضاؤه على غيره.

ويوصي الإمام ابنه موسى الكاظم فيقول:

"يا بني. من رضى بما قسمه الله له استغنى. ومن مد عينه إلى ما في يد غيره مات فقيرا. ومن لم يرض بما قسمه الله له اتهم الله في قضائه. ومن استصغر زلة نفسه استعظم زلة غيره.

يا بني:من كشف حجاب غيره انكشفت عورات بيته. ومن سل سيف البغي قتل به. ومن احتقر لأخيه بئرا سقط فيها. من داخل السفهاء حقر. ومن خالط العلماء وقر. ومن دخل مداخل السوء اتهم.

يا بني: إياك أن تزري بالرجال فيزرى بك. وإياك والدخول فيما لا يعنيك فتذل لذلك.

يا بني قل الحق لك أو عليك.

يا بني: كن لكتاب الله تاليا وللإسلام فاشيا وبالمعروف آمرا وعن المنكر ناهيا. ولمن قطعك واصلا. ولمن سكت عنك مبتدئا. ولمن سألك معطيا. وإياك والنميمة. فإنها تزرع الشحناء في قلوب الرجال. وإياك والتعرض لعيوب الناس فمنزلة المتعرض لعيوب الناس بمنزلة الهدف".

obeikandl.com

وتصبح هذه الوصية تراثا للأئمة بعده. فيعلن الإمام الثامن "علي الرضا" أنه "ما ترك هذه الوصية إلى أن توفي".

* * *

ولقد يفد على المجلس الكميت – شاعر أهل البيت – كما كان يدخل على زين العابدين[٥٥] والإمام يعرف انبعاث الشاعر. ويخشى عليه من الخيال الصادق في تصوير ظلم يعانيه أهل البيت. وشعر الكميت من أسير الشعر في الأدب العربي – والبرد تنقل للخليفة الخبء من أي شئ – فيستأذن الكميت الإمام قائلا: جعلت فداك. ألا أنشدك؟ فينبهه الإمام قائلا: "إنها أيام عظام".

فيقول الكميت عن القصيدة: إنها فيكم. ويقول الإمام: هات فينشده قصيدته التي مطلعها:

---

(٥٥) دخل الكميت على زين العابدين فأنشده قصيدته التي مطلعها:

من لقلب متيم مستهام غير ما صبوة ولا أحلام

وقال الإمام: ثوابك نعجز عنه لكن الله لا يعجز عن مكافأتك. اللهم اغفر للكميت. ثم قسط على نفسه وعلى أهله أربعمائة ألف درهم. أعطاه القسط الأول. قائلا:خذ يا أبا المستهل. قال الكميت لو وصلتني بدانق كان شرفا لي ولكن إن أحببت أنت حسن إلي فادفع لي بعض ثيابك، التي تلي جسمك أتبرك بها. فنزع ثيابه ودفعها إليه كلها ثم قال: اللهم إن الكميت جاد في آل رسولك وذرية نبيك بنفسه حينضن الناس. وأظهر ما كتمه غيره من الحق فأحيه سعيدا. وأمته شهيدا. وأره الجزاء عاجلا وأجزل له المثوبة آجلا. فإنا قد عجزنا عن مكافأته – قال الكميت فيما بعد: فما زلت أعرف بركات دعائه.

ولئن كان عطاء الشعراء جوائز تشجيع لهم، إن تقسيط العطاء آية سخاء في التشجيع، وارتباط طويل بالمودة بين قرض الشعر وبين من أجازه.

وتعجيل العطاء بالاستدانة درس تعلمه زين العابدين على جده – صلى الله عليه وسلم – كان يمكث شهرا ما يستوقد نارا، إن هو إلا التمر واللبن. ومع ذلك لا يرد أحدا يسأله، بل يعطيه إذا كان عنده وإلا وعده. وذات يوم جاءه رجل. فقال عليه الصلاة والسلام: "ما عندي شئ. ابتع على فإذا جاء شئ قضيناه". قال عمر: يا رسول الله ما كلفك الله ما لا تقدر عليه. فكره ما قال عمر. وقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالا. فتبسم صلى الله عليه وسلم. وقال: "بهذا أمرت".

ألا هـل عـم فـي رأيـه متأمـل وهـل مـدبر بعـد الإسـاءة مقبـل

إلى أن قال:

كـلام النبيـين الهـداة كلامنـا وأفعـال أهـل الجاهليـة تفعـل

رضـينا بـدنيا لا نريـد فراقهـا علـى أننـا فيهـا نمـوت ونقتـل

ونحن بها مستمسكون كأنها لنـا جنـة ممـا نخـاف ونعقـل

فكثر البكاء وارتفعت الأصوات إلى أن قال:

كـأن حسـينا والبهاليـل حولـه لأسـيافهم مـا يختلـى المتبقـل

فلـم أر مخـذولا أجـل مصـيبة وأوجـب منـه نصـرة حـين يخـذل

obeikandl.com

فرفع جعفر الصادق يديه وقال: اللهم اغفر للكميت ما قدم وما أخر. وما أسر وما أعلن. وأعطه حتى يرضى. ثم أعطاه ألف دينار وكسوة.

قال الكميت: والله ما أحببتكم للدنيا، ولو أردتها لأتيت من هي لديه، ولكني أحببتكم للآخرة. فأما الثياب التي أصابت أجسامكم فإني أقبلها لبركتها. أما المال فلا أقبله.

obeikandl.com

المذهب الجعفري

أخرج الحاكم في تاريخه بالإسناد إلى أبي بكر عن رسول الله قال: "من كتب علي علما أو حديثا لم يزل يكتب له الأجر ما بقي ذلك العلم أو الحديث".

وأجمع أبو بكر أيا خلافته على تدوين الحديث فجمع خمسمائة حديث فبات ليلته يتقلب كثيرا. قالت عائشة: فغمني تقلبه. فلما أصبح قال لي: "أي بنية هلمي الأحاديث التي عندك" فجئت بها فأحرقها.

وعن الزهري عن عروة أن عمر أراد أن يكتب السنن فاستفتى أصحاب رسول الله ﷺ فأشاروا عليه أن يكتبها. فطفق عمر يستخير الله فيها شهرا ثم أصبح يوما فقال:"إني كنت أريد أن أكتب السنن. وإني ذكرت قوما قبلكم كتبوا كتبا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله. وإني والله لا أشوب كتاب الله بشئ أبدا.

لكن عليا دون.وخلف في شيعته طريقة "التدوين". فلقد كان على ثقة من طريقته. وهو الذي يقول فيه الرسول: "علي مع القرآن والقرآن مع علي ولن يفترقا حتى يردا على الحوض" وعنه قال الرسول: "يا معشر قريش. والله ليبعثن الله عليكم رجلا امتحن الله قلبه للإيمان فيضربكم على الدين قال أبو بكر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا. قال عمر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا. ولكن ذلك الذي يخصف النعل".

وكان علي يخصف نعلا للنبي عند ذلك.

وبالتدوين الفقهي استقر المذهب في صدور الحفظة والنقلة، من علي إلى بنيه، فبنيهم، وبخاصة زين العابدين وزيد والباقر والصادق. ثم عملت مجالس الإمام الصادق في نشره كمثل عمل التدوين في استقراره. وأدرك الأئمة الذين تلمذوا له وتلاميذهم أمورا ترفع مجلس الصادق فوق المجالس، سواء مجالس أهل السنة أو "أهل البيت" منها:

١- أن الذي يلقى هذا العلم إمام موصى إليه "باسمه" من أبيه. وبهذا ينماز من عمه زيد بن علي صاحب المذهب الزيدي ومن غيره من الشيعة.

٢- أن هذا الإمام يقف بين العلماء جميعا في مكان خاص. فالسنة عند الشيعة بعد موته تثبت عن طريقه – إلا ما ندر – فعنه يروي آلاف، وعنهم جاءت الأحاديث المروية في كتبهم.

٣- أن الآراء الفقهية في أصول الدين وأصول الفقه وفروع المعاملات والعبادات سيراها اللاحقون منسوبة إليه. وربما اقترن به أبوه الباقر، أو أشير إلى رأي جده، السجاد، لكن نبع العلم منه هو الأشهر والأكثر.

وإذا لم يعرف التاريخ إماما في السنن من درجته أو إماما في الفقه من مرتبته. فالتاريخ – كذلك – لا يعرف إماما اجتمعت له الإمامتان مثله.

٤- أنه الإمام الذي يوثقه أئمة المسلمين جميعا. ويستوي في ذلك من أهل السنة أئمة الرأي فهم تلاميذه، وأئمة الحديث فهو القمة منهم.

وروايته للحديث يوثقها واضع الأساس العلمي لقبول الحديث "الشافعي"، وعلماء الجرح والتعديل كيحيى بن معين وأبي حاتم والذهبي وابن حنبل والآخرين، وتتردد في كتب الصحاح أحاديثه. كما يبايعه إمام أهل البيت الذي سبق بفرقة عظيمة وفقه خالد، عمه زيد بن علي زين العابدين، صاحب "المذهب الزيدي". ويضعه موضع الإمامة فيقول: "في كل زمان رجل من أهل البيت يحتج به الله على خلقه وحجة زماننا ابن أخي جعفر لا يضل من كان من شيعته ولا يهتدي من خالفه".

٥- أن هذا الإمام هو أول وآخر واحد من صلب آبائه وأجداده من الله عليه بهذه الفرصة: أواخر الدولة المروانية المشغولة عنه بتثبيت دعائمها المهتزة، وأوائل عهد الدولة العباسية، التي تمد إليه بسبب، من السلام أو الخصام، وآصرة من النسب، تخدمانه أو تخدمانها – وهي ترفع شعار أهل البيت والدفاع عن الدين – وبهذا أتيحت له حرية الجلوس لكل الناس،

والتدريس لكل العلوم،وأن تسيل الأباطح بأعناق المطي إليه من بقاع العالم، في حقبة ممتازة من التاريخ العالمي والإسلامي.

٦- أنه الإمام الذي طمأن الخلفاء "الملوك" في الدولتين، ومنهم سفاحون غلاظ الأكباد. فهو كما يقول الشهرستاني وأبو نعيم في الملل والنحلي وحلية الأولياء "ما تعرض للإمامة قط ولا نازع في الخلافة أحدا. ومن غرق في بحر المعرفة لم يطمع في شط. ومن تعلى إلى ذروة الحقيقة لم يخف من حط".

٧- أنه الإمام الذي أتيح له على مدار ثلث قرن من الزمان بعد موت أبيه سنة ١١٤ أن يكون "الإمام". فامتد به عصر سلام، ضروري لنشر العلم، باطمئنان طالبه، وواهبه، والدولة التي ينتشر في رعاياها.

* * *

هذه العناصر التي لم تجتمع لواحد من آبائه أو أبنائه جميعا،هي التي سوغت لمن تبع فقهه من الشيعة أن يطلقوا على مذهب المذهب "الجعفري". وما هو في صميمه إلا "مذهب علي".وإنما تخول السماء بركاتها لبعض الأسماء في شكل حظوظ. وكان الإمام جعفر الصادق جديرا بنعمة السماء قدر ما صدق وكافح في خدمة الإسلام.

وما كان علي بحاجة إلى ما يخلد اسمه. فالإسلام في أعظم أيامه يقترن باسم علي، قدر ما اقترن اسم علي بالنبي وبيت النبي.

والمذهب يحمل اسم جعفر لأنه صاحب مدرسة سقيت منه السنة الصحيحة، ومصادر الفقه العظيم، والمنهاج السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي نهجه تابعوه، وروى ذلك كله الآلاف. وروى عنهم أمثالهم.

وفي الجدود، بمعنى الحظوظ، جد وجد، لكنها ليست خبط عشواء: فاسم أمريكا قد خلد اسم أمريجو فسبوتشي، لأن أمريجو فسبوتشي كان كاشفا حقيقيا لبعض شواطئها سنة ١٤٩٩.

ولم يغمط حظ الكاشف الثاني حق كرستوفر كولمبس، الكاشف الأول لها في سنة ١٤٩٣. فاسم كولومبوس ما يزال يجري على كل لسان على أنه كاشف العالم الحديث.

والتاريخ – كله – يقدمه على فسبوتشي.

ولسنا في مقام مقارنات برجال، فعلي وجعفر فوق المقارنات، بما قدموا للعالم كله – وسيطه وحديثه – من عناصر الحضارة، التي نقلت العالم من جهالات العصور القديمة وظلمات العصور الوسطى، إلى الحضارة المعاصرة، على عجلات التقدم، يحركها العلم الصحيح، والاجتهاد الذي لا يتوقف. وكسب الأمم من علم الأئمة. كاقتران أسماء أصحاب الكشوف بكشوفهم وأرباب الابتكارات بفتوتهم، ليس صدفة. ولا محض جزاء. وإنما هو توفيق من الله للإنسانية وللناس، لتكريم أمم، ورجال، فتحوا أرض الله لعباده. أو مكنوهم من أنعم السماء، أو سنن الأنبياء، ليشجع الشجعان، ويستمر ضوء الفكر الإنساني في إشراقه. حفزا للعزائم وظهورا للعلم.

ومنذ القرن الميلادي الماضي يطلق العلماء أسماء الرجال الذين يسروا للناس أسرار الطبيعة على مقاييس الطبيعة: الوات نسبة إلى Watt والفرد نسبة إلى Faraday والأمبير نسبة إلى Ampere والفولت نسبة إلى Volat والأوم نسبة إلى Ohm والميجاهرتز نسبة لهرتز Hertz ورونتجن نسبة إلى Rontigen وهم إنجليزيان وفرنسي وإيطالي وثلاثة من الألمان.

وأين تجربة أو تجارب أو كشف أو كشوف من شريعة بتمامها، وإمام في الصدر من أئمتها، وطأ نصوصها، وأصل أصولها، وقعد القواعد لها، وأقام عليها دولا باقية بقاء الزمان، ومجتمعات خالدة بخلود الإسلام، ينسب المذهب فيها إلى صاحبه، فيكون المذهب "الجعفري" أو المذهب "الإمامي" المنسوب إلى الإمام جعفر وإلى القول "بإمامة الأئمة الاثنى عشر".